المحسوس والملموس

رواية

عبد الفتاح مرسى



اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

المحسوس والملموس

رواية

عبد الفتاح مرسى



١٩٩٥

١ ـ الصوت والصدى

«.. ها أنت تقترب من الإمساك بهامة الأحلام، تحاصرها بجهدك الدءوب، لا تمكنها من الإفلات.. حتى لا تعدو خلفها وتشقى مرة أخرى، فى العثور عليها.. أمسك بها بقوة العقل، الذى تخترمه الخرافات، ما أشقى البحث عنها فى كهوف الزمن وتلال الأمكنة، التصق بها، طوقها بذراعيك فى قوة الرغبات، لا تخش أن تتفتت صلابتها إلى ذرات، بإمكانك ـ مشهود عنك الصبر ـ جمعها لتصنع منها قاربًا، تعبر به إلى الجانب الآخر..»

استيقظ.. ..

هطلت الأمطار فجأة، لكن الشمس انفلتت من خلف ركام السحب، فصحا الجو وأشرقت فى ذلك الصباح، واهنة..

عادة ما يحدث ذلك فى شهر يناير بالاسكندرية، بينما كان يرتدى ملابسه ويتهيأ للذهاب إلى عمله فى (الجامعة)، المحاضرة الأولى فى التاسعة والنصف.. يشغل الفراغ بين طرفى السرير والدولاب، (فكرية) لا تزال نائمة، متناومة، عندما فتح ضلفة الدولاب انزلقت من مكانها، فعل الزمن الذى يتأثر به البشر والجماد، تدرب على إعادتهاإلى مجراها كما يجب أن تكون، لكن لكى يتذكر، أن وقتاً طويلاً قد مضى على الزواج، عندما استدار مرة أخرى فى اتجاه (فكرية) كانت هى قد استدارت ورقدت على الجانب الآخر، هى لا تطيق النوم طويلا على الجانب الأيسر، لعلها تراه فى مرآة (السراحة) بوضوح.. حيث الموضة، أبطل تفصيل صديرى للبدلة، تناول (بلوفر كت) خفيفا ليرتديه بين الجاكتة والقميص - الطقس غير مضمون، صار يتأثر بلفحات البرد، اعتادت فكرية فى السنوات الأخيرة - بحجة القولون وكسل الكبد، أو بدونهما، أن لا تقوم لتجهيز إفطاره.. اعتمدت على الأولاد.. الإبنة الكبيرة رفقة.. بالذات.. عزة دلوعة أمها..أما (جمال) فقد صار رجل البيت والسيد المطاع..

عاد رذاذ المطر يتساقط ثانية، يراه من خلال زجاج النافذة واضحا بين خيوط الشمس الشتوية، كف عن ارتداء البلوفر الخفيف، استبدله بآخر ذى أكمام وإن كان لونه لا يناسب البدلة ـ لا أحد قد أصبح يدقق فى تناسق الألوان.. لكن..

كان قد نام بعد منتصف الليل، من قال أن عمل أستاذ الجامعة سهل.. استيقظ قبل انتهاء ـ بث إذاعة لندن ـ العربية فى فترتها الصباحية، دفعت فى رأسه بعدد لا بأس به من الكوارث وأنباء الحروب والانقلابات.. لم يكن متنبها تماما.. عندما أفاضت المذيعة فى وصف آثار الدمار الذى خلفته القنبلة التى انفجرت فى الميدان، لم يتبين أن كان هذا الميدان بيكاديلى أم التحرير.. أم ساحة الشهداء فى بغداد.. هل حدث الانفجار فى مصر أم إحدى الدول العربية.. ربما حدث فى قلب لندن من قبل جيش أيرلندا.. لكن ما كان يود سماعه.. هبط إلى الخبر السادس..

فكرية ناظرة مدرسة إعدادية، واحد وخمسون عاما ـ من آداب (الاتيكيت) أن يتجاهل عن عمد ذكر ذلك، من الأفضل أن يقول ـ إن عمرها ثلاثون عاما ومئتان وخمسون شهرا، فكرية دقيقة الحجم ملفوفة القوام ـ كانت تشبه (فاتن حمامة)

يوما ما، كانت بيضاء وشعرها كستنائى قصير، ولكنها الآن تبدو شاحبة، يحيط بفمها الخطوط الدقيقة، ويميل لونها إلى الإصفرار المغبر، تعتنى بوجهها عناية خاصة، وتصبغ شعرها باللون الأسود، وتنسى رقبتها، تعتد بآرائها ـ حتى يخيل إليه أنها قد أمست إمرأة عنيدة، تجد المبررات لنفسها، نادرا ما تعتذر عن خطأ، فهى تحاول أن تبقى المرأة المحافظة التى لا تتجاهل أساسيات الزواج، من يراها على بعد خطوات يعتقد أنها فتاة قد فاتها قطار الزواج، لا تقرأ سوى تقارير المدرسه، تؤمن بالحسد والتشاؤم.. كانت ترى أن عائلتها ـ أفضل من عائلة زوجها، وأنها منت عليه عندما تزوجته، كان ذلك فى السنوات العشر التالية على الزواج، لكن الحراك الاجتماعى، فعل فعله.. فكفت عن ترديد هذه المقولة حتى من باب الهزل، علاقتها بجيرانها ـ فى العمارة أو الشارع ـ محدودة، ينحصر جل اهتمامها فى اسرتها الصغيرة، لا تشارك زوجها فى كثير من افكاره وآرائه، بل ربما عارضته بشدة وكأنه مخترع كل الأفكار التى يرددها، ثم بعد ذلك، تعود تردد نفس الآراء.. تمضى كثيرا من الوقت فى شغل البيت، لا يعجبها ما تفعله (رفقه) أو (عزة).. بينما تخشى غضب ابنهما (جمال) أكثر مما تخشى غضب والده، تحاول

ايهام الجميع ـ ولا تنسى تردد ذلك ـ أن لولا جهودها ووقوفها وراء زوجها ما كان قد استمر استاذا بالجامعة فهذه وظيفة لا يعرف (محمود) كيف يتربح منها.. وفى احيان كثيرة تتمنى لو أن زوجها كان تاجرا أو مقاولا.. إلا أنها والحق يقال، قنوعه، لا تتطلع إلى العيش فى الطبقة العليا وإن كانت حياة الثراء التى تراها فى مشاهد السينما والتليفزيون.. تخلب لبها أحيانا ـ ما ترجوه من الدنيا أن تتزوج أبنتاها من عريسين ثريين، يعملان فى دول الخليج على الأقل، وهى ترى أن (عزة) لجمالها مؤهله لهذه الزيجة بسهولة، أما (رفقة) فهى تتمنى لها عريسا مناسبا (والسلام) وتبدى استعدادًا لمعاونته من حُرمالها، فرفقة ورثت عن أبيها ذلك الوجه الاسمر، والشفاه الرمسيسيه والملامح الصعيدية والشعر الاسود الخشن – وربما قالت فكريه عن نفسها – ياليت جاءت رفقه ولدا.. وجمال بنتا..!!

فى السنوات الاخيره – وبعد ارتفاع الاسعار – سحبت فكريه من محمود بعض الامتيازات، فقد قامت بالاشراف الكامل على اقتصاديات الأسره وأصبح مصروف البيت من أخص شئونها – وعندما تم هذا – رأى الدكتور محمود – أنه فرغ من وجع الدماغ والمقدمات الطويله – يتخللها بوس

الرأس والخدود - من الاولاد - حينما يبغون زيادة المصروف الشخصى - أو طلباً من طلباتهم الاضافية - التى ليست فى محلها - وكان ذلك يشغل حيزا من وقته المهم بل انه تقدم لها بالشكر اذ تحملت هذه المسئولية عنه والتى كانت تتجاهلها وتنفض يدها منها طوال السنوات الماضيه، حتى انه حمل لها الحقيبه الصغيرة التى يضع فيها (الفلوس) ونقلها إلى درجها الخاص عن طيب خاطر.. لقد بدأت بتضييق الخنادق عليه أولا - ورأت انه يبذر كثيرا على (الكتب والمراجع والدوريات) فتداعت بعض مزاياه الثانوية بالتدريج.. وقبل ذلك حتى يساعدها على نجاح سياستها (التقشفيه) فى ترشيد الاستهلاك.. واعتقد انها سياسه (عامه).. لكنه لحظ تفرقه صارخه.. فبينما (جمال) بمجرد ان يكشر (مابك يا حبيبى - أريد.. خذ) وكذلك (عزه) التى صارت مطالبها الاضافيه والاستثنائيه - تثير حنقا بين (فئات المجتمع).. صارت طلبات (رفقه).. تخضع لكثير من الاستفارات ودراسات الجدوى حتى أنه - تدرب - على اخفاء بعض الإجور الإضافيه - بعيدا عن (الحقيبه) الصغيره القابعه فى درجها) لحل بعض الازمات الطارئه، لدى رفقه أو لديه.. بالجهود الذاتية وخارج نطاق الميزانية العامة واستخلص من

نقل (المصـروف) أن من يملك العطاء، يسـتطيع السـيطرة الفـعلية على العـواطف، بل يتـحـول إلـى رب الأسـرة المطاع - بصـرف النظر عن الواقع أو الجنس، ويعـمل الجـمـيع على كسـب ودّه، وعدم تعكيـر مـزاجة والعمل على راحـتـه.. بينمـا (هو) وأن كـان المصـدر الاسـاسـى للدخل... فـقـد تحـول إلى (طبقة عاملة) تتعب وتنتج... ثم تقوم (فكرية) باصـدار قرارت (المنحة) لها.. فيهلل (الشعب) عاشت ماما العظيمة.

وقـد فكر - الدكـتـور - يومـا - أن يقل عـقله ويقـوم بانقـلاب لاسـتـعـاده (الشنطة) إلى درج مـكـتـبـه.. ويعـمل له قـفـلا مسـوجرا.. ولكنه عندمـا حصـر القوى الاجتمـاعيـة المؤيدة والتى سترسل إليه بالتـأييد ـ وجد أن الاولاد الثلاثة - يؤمنون بحكمه عصفور فى اليد.. فكرية من حين لآخر اذا ما كانت فى أجـازه وبالـهـا رائق، تتـحـول إلى مـلاك حـارس... تصنع للدكتـور الطعام الذى يحبـه، وترتدى له الثوب الذى يفضله، وتحـاول أن تشـعـره بأنهـا فكريـة زمـان - المتـدفـقـة بالنشـاط والحيوية والتى لديها أحاسيس أنثوية جياشة، ولكن ذلك على فترات متبـاعدة، وأحيانا يأتى ذلك منها فـى وقت غير مـلائم لنشـاطه العقلى والجسدى بالمره فيصـيبـهـا باحبـاط - وقـد تصرح: (بركة ياجامع..) وهى تشتعل..!

«يستقبل الدكتور محمود ضياء الصباح، ينشط سيرا على الأقدام، ينفخ فى قبضتيه، مجرد ظهور الشمس ورؤيتها يبعث فيه الدفء الذى يبدد برد الليل الملتصق ببكور الصبح.. وعندما تلملم الشمس خيوطها وتتوارى خلف السحب الرصاصية يشعر كأنها قد سلبته ثيابه وتركته عاريا، دفقات الهواء تلفح وجهه، ثم - وهو سائر، بعيدا عن بروز البلكونات.. تزخ الزخات المفاجئة.. فيسرع الخطا ويلوذ بالجدران - تحدث كثيرا مع فكرية عن السياره - ولكنها كانت ترجئ ذلك إلى الإعارة لها أو له - لكن لا يتصور نفسه قائدا لسيارة، فهو يستغرقه التفكير يصطدم بالماره على الرصيف ويرى أن هذه (المهارة) ربما يتمتع بها جمال أو عزة.. واذا ارادت فكرية - ربما تصبح ماهرة فى قيادة السيارات - هو دائما محمل بالهواجس، أفكاره تتوالد وتتضخم وتتفتت وتنقسم.. (مضى إلى شارع الكورنيش، يمسح زجاج نظارته كلما تجمع عليه رذاذ المطر.. محتميا بجدران البيوت التى يهجرها معظم سكانها فى الشتاء..)

مساء أمس، استقبلته (فكرية) على الوسادة بأحاديثها التى لا ينصت إليها بتركيز، يكفيه أن يتمعن فى (عناوينها) كإجابات معظم الطلبة الذين التحقوا بالجامعة بسبب المجموع

ـ وصف تفصيلي معاد ـ لما يحدث لها في المدرسة.. ملأت ذهنه بالمدرسين والمدرسات، الجداول والاداريين والإداريات، شخصيات المفتشين ولعبة القط والفأر التي تمارسها معهم، حتى الفراشين ـ الكسيبة ـ بائعي السندوتشات للتلاميذ والمياه الغازية، زاحموا افكاره، جلسوا على حواف دراساته وكتبه، يتقافزون كالقردة في فراغات رأسه، فقرر أن يكف عن الاستماع، يغلق تلك الفجوه، لكنه لا يستطيع أن يمتنع.. فهي تنتظره على الوسادة، عندما يكون في أشد حالات استسلامه.. درب نفسه على غلق أذنيه أو تغليف ذهنه بموضوع خاص به، ولا ينس أن (يزوم) من حين لآخر، حتى يتسلمه النوم.. أو قد يتصنعه ـ ويجعل أنفاسه تتردد مسموعة.. فتكف (شهرزاد) عن حكاياتها.. وبرغم وجود الحراس الشداد عند المداخل الا أن طول الحصار ـ واستهلاك الاسلحة، أضعف المقاومه، يتسلل بعضهم، يرقدون في الاماكن المظلمه ـ وربما دارت بينهم معارك خاطفة... في كل الأحوال كانت تحدث في (رأسه) خسائر.. حاول بناء قلعه أخرى.. ويترك لها القعله القديمة..

«للقلاع القديمة نسق مميز في البناء لا شئ تم بناؤه دون الاستفادة منه، بالرغم من أننا قد نراه الآن ـ مبنى مترهلا

سميك الاسوار - كثير الحنايا» استحكمت فكرية بداخل قلعته القديمة - وجاءت قلعته الحديثه، مجرد معسكر وخيام وسور من السلك الشائك كل شيء مكشوف فيها ومعرض لقذائفها - حاول مرارا استعادة قلعته، إلا أن ركونه للسلام الطويل - وعدم القيام بالتدريبات الواجبة، جعله يستمرأ عروض إعادة النظر، ويميل إلى التأجيل، حتى بات الأمر - بمرور الزمن - واقعيا وخلق قانونه - أمام الأولاد على الاقل.

توارى خلف - الحضاره والديمقراطية - وانه يمكن للتناقضات أن تتعايش سلميا.. لفكريه ترتيبات تقابل ترتيباته.. فهى ترى (مثلا) أن جمال أولا، ثم عزة، ثم رفقه ذلك فى الأهمية دون إبداء الأسباب..

وهو يرى - أن ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى - وانهم كأسنان المشط، يقفون فى الاهمية فى صف واحد، واذا تم ترتيبهم.. تكون الاقدمية المطلقة.. رفقه، ثم عزه ثم جمال (الجميع غلاوتهم واحده)

تسخر منه (رفقه مثلكم صعيدية، شكلك بالضبط..)..!

يقول: «أشكرك على هذا الإطراء.. يابحراويه..»

ما الذى صدع نفسه، متى حدثت تلك التشققات والأخاديد.. لم يكن للزلزال صوت.. ولم يكن له درجه، كان يرمم هذه التشققات بعيدا عن العيون فبدا أمام الآخرين ـ انه حديث البناء.. ولكنه وحده يعرف ـ مدى التصدعات ومايخفيه الطلاء الزاهى من الكلمات الطيبه وحاله الوئام ـ التى يتمثلها فى بيته وفى عمله.. إعتاد أن يترك لهم أذنا واحده.. ونصف وعى ويشطح ـ بماتبقى له، بعيدا..

الدكتور منير، زميله فى الكليه، علمانى، يحافظ على صلاه الجمعه، خفيف الظل ـ ابن نكتة ـ خزانه اسراره ـ باب الفضفضه التى يحط بها، اذا ما استبد به الهجير، فى رفقته يشعر بالحريه، بأن قيوده تكسرت عن روحه، لديه يتخفف ـ حتى من التقاليد ـ كوه الاعتراف بالاخطاء، فتتطهر نفسه وتسمو، اعتاد أن يراه يوميا ـ اذ ما حالت الظروف بين لقائهما ـ يطلبه بالتليفون ـ يرفع السماعة، يجد الخط مشغولا.. لأن (منير) يكون فى نفس اللحظة (يطلبة) فهو يحمل له نفس المشاعر..

كان (منير) قد توغل فى صراحته العلمية والعملية.. وانقطع عن الحضور الى الجامعة ـ اختفى تماما ـ من منزله

ومن الأماكن التى ربما يكون متواجداً بها، لمده شهر تقريبا، خلال هذا الشهر، تعرض محمود لضغط نفسى وشعور رهيب بعدم الحيلة - لم يستطع أن يمارس حياته العادية.. بقى محبطا حتى عاد صديقه (منير).. لم يكن هو الذى عاد - فوجىء أنه نسخه مختلفه عن منير صاحبه القديم (حاله نفسيه سريعا مايخرج منها منير ويستعيد نفسه) الا أن الشهور تمضى والبديل يقوم بدور صاحبه منير، لم يعد يفضل الشيشه مع فنجان القهوه المضبوط، لم يعد يلقى بقفشاته المبهجه ويجلجل ضاحكا، لم يعد يثق بأحد.. يضطرب أذا امسكه فجأه من ذراعه أو خبط ظهره أو حتى ناداه بصوت عال.. افتقد صديقه القديم - وتحليلاته المبتكرة - النسخه المندفعة التى يتعلق بأذيالها، وجده قد ركن على الطوار، حط كقطعه من الحجر التى ليس لها ملامح، شعور بالخواء يكتنفه.. لم يعد يسرع الى الكليه.. ليسعد بالوقت القليل المتاح - للدردشه معه - ثم يتواعدان.. لم يعد للحديث شجونه، افسح مكانه للقلق الحزين - نفس هذه المشاعر كانت تعتصره عندما كان - يمرض فجأه أحد أولاده - عندما كانوا اطفالا لا يستطيعون - التعبير عن آلامهم، (إلى أى طبيب أصحبك يا منير..؟)

قال الإخصائى النفسى (إحباط شديد) وطلب بضرورة إبعاده عن المسببات أو ـ إدخاله المستشفى النفسى ـ هلع محمود ـ أن يوصم (عقل منير المتفتح) الذى كان مثار إعجاب الزملاء والمتنافسين (إذا ما حجز فترة بالمستشفى النفسى) إن هذا سيفتح على (مستقبله) الخراب، وخاصة وأن الأسلحة التى باتت تستعمل فى التنافس لم تعد أسلحة العلم والبحث.. رفض بشدة ـ حتى مجرد إقناعه ـ وأن يحصل على العلاج فى منزله ـ ويقوم بنفسه بالمتابعة ـ إنها مهدئات ـ ومنير أمسى... مستكينا.. يحدق فى لا شىء..

تذكر إحدى قفشاته ـ أخذ يضحك (فى الطريق) وعندما رأى شابة فى عمر (عزة) تنظر إليه مبهوتة.. أخذ يدندن بأغنية شبابية شائعة، تسللت إلى حافظته من تسجيل الأولاد ـ فاستغرقت الفتاة فى الضحك ـ لسخافة الأغنية.. لماذا.. لم يترنم بأغنية من أغانى (الطبقة الوسطى): عبدالحليم، عبدالوهاب، أم كلثوم.. كيف تسللت إلى ذهنه ـ أغانى ـ الانفتاح.. التى حلت مكان الفن الوقور..

كانت الفتاة لا تزال تتابعه بعيونها الشقية.. فبادلها الضحك فكفت !

«عماد الدين زنكى، كسر حاجز الضعف والهوان، أخذ بيد المتخاذلين إلى شاطىء الجرأة والشجاعة، عندما بدأ محاولاته الجادة فى استعادة مدينة (الرها)، متى ستعود إلى صديقك يا دكتور منير، يوما ستفارقك تك النظرات الخاوية المضطربة ويدور بيننا ـ ما بدأناه من حوارات خلاقة، وتضحك من قلبك وأنت تقطع الجد بالهزل أو تحول الهزل إلى إستفادة مرحة، اشتاق إلى خلطة العقل بالقلب، السياحة بجوارك، العوم فى نهرك، الأفكار التى تقتنصها من غابات الحياة والفكر، باقات الزهر بداخلها رأس بصلة (تأمل الجمال فى بصلة خضراء، أنظر جمال العنق وانسيابيته، والشوشة التى يمكن صنع تسريحات حديثة لها، وهذه الأوراق الطويلة الخضراء المنتفخة، يمكن أن أصنع منها أخطبوطاً، ويمكن أن أصنع لك منها أجمل زهرة ـ المهم نتعلم كيف ننسق الأشياء ـ بدون مواقف ثابتة، كل شىء ملقى على رصيف الحضارة، ولكننا ندوس على (الأفكار) حتى نلصقها بالبلاط.. لا تنظر حولك.. لكن أنظر أمامك..»

الدكتور فرج برهان.. والدكتور جعفر عطيتو..!

من منهما أوصل منير إلى هذه الحالة..

«د. جعفر عطيتو.. يؤيد بشدة ظاهرة التأسلم السياسى؛ ويجعل من (منير) حربه الصليبية (البرقع ليس إسلامياً.. وإنما أخذه العرب من الشعوب الأخرى)، (كفر وإلحاد) وأئمة المسلمين أجمعوا على أن تكشف المرأة وجهها وكفيها (دعوة للإنحلال) الحجاب التام لم يناد به الإسلام (من أدراك وأنت عاص لا تواظب على الصلاة) القرآن أعطى للمرأة كل حقوق الرجل فى التجارة والزراعة وحقوقها المدنية، فكيف تبيع وتشترى ولا أحد يرى وجهها، كيف تقف فى المحاكم ويسألها القاضى ولا يرى وجهها ولا يعرف لها رسماً (لعب بالألفاظ، وهل عدم الرجال للشهادة والتجارة، المرأة مكانها البيت نحافظ عليها من شرور الطريق وذئاب السكك والأسواق) كيف تكون عندك خادمة فى البيت أو عاملة فى حقل أو فى دكان ولا ترى وجهها (هذه كلمات يراد بها باطل) البرقع يظهر المحاسن ويخفى العيوب.. فهو يلفت العين أكثر (البرقع لا يلفت سوى نظر الذئاب الضارية) إن المرأة التى حجبت وجهها أخفت فى نفس الوقت هويتها. ولذلك اكتسبت حرية فى الإغراء والألاعيب.. ولو كشفت وجهها وعرفنا من هى، فإنها تستحى أن تأتى بمثل هذه الأعمال المثيرة (دعوة إلى الفجور.. من داعر) هذه ليست آرائى ـ ولكنها آراء قيلت

عام ١٩٢٨، ولجهلهم.. فهم يعادون رجال الدين المستنيرين.. أمثال الإمام محمد عبده (هى عادة اليساريين تفتيت وحدة الإسلام بتصنيف علمائه إلى مستنيرين وظلاميين)».

ود. فرج برهان يؤمن بالمثل ـ من يتزوج أمى أقول له يا عمى، عمل فى عهد عبدالناصر بهمة ضد الشيوعيين والإخوان والاقطاعيين والرأسماليين وأصدر كتاباً فى الاشتراكية العربية ـ المنهج والغايات ـ حتى جعلها تفوق الماركسية.. ذهب عبدالناصر وجاء السادات، فانقلب على أفكاره ـ داعياً إلى (حرية الرأسمال) أيضاً ـ المنهج والغايات ـ وعمل بنفس الحماس ضد (الناصريين ومراكز القوى) وأضفى على منافسيه الصفات التى كانت ـ بلاغات صريحة ـ لنيابات أمن الدولة ضد ـ زملائه الذين يقفون فى طريق ترقياته فى السلك الوظيفى».

«أجهزة المخابرات فى الغرب وإسرائيل، لم تعد تهتم بتجنيد الجواسيس، فلديهم متطوعون ـ جملة وقطاعى ـ لماذا ينفقون على تدريبهم.. على المراسلة بالحبر السرى أو أجهزة اللاسلكى.. إنهم لا يحتاجون لأى معلومات إضافية من دول العالم الثالث، الدولة العظمى، ترى الدنيا بأقمارها الصناعية

وعلى شاشات التليفزيون كأنها تنظر فى كفها .. لقد أمسى تحريك الجيوش، حماقة لا يرتكبها سوى السذج من الساسة، لقد حدث تطور فى أساليب (الاحتلال)، أنهم الآن لايدفعون أموالاً ليحاسبهم دافعو الضرائب حساب الملكين ـ عند إجراء الانتخابات ـ إنهم يقدمون بدلاً من الأموال خدمات عظيمة لعملائهم، يعاونونهم حتى يتبوأوا ـ فى الدول المعنية ـ مناصب سياسية أو عسكرية عليا، ثم يطالبونهم بعمل (بسيط) هو أن يعملوا على وضع الرجل المناسب فى غير المكان المناسب، أو وضع غير المناسب ـ على قمة المؤسسات ـ المطلوب تصفيتها، بذلك ينفتح الطريق أمام ـ الضعفاء ـ ليكونوا على قمة الجهاز الحكومى والعسكرى من الطبيعى ـ أن هؤلاء الضعفاء، سيسعون من تلقاء أنفسهم إليهم ـ طلباً للحماية، فتسقط الدول فى هاوية التبعية ـ دون (مصروفات) تذكر..! وتصبح الدول فى عالمنا الثانى والثالث، عيدان هزيلة (يسلكون) بها ما بين أسنانهم المدببة بعد إلتهام طعامهم الدسم (من الخامات) أو بقاءهم (مجرد أسواق) لمنتجاتهم..!

«أنهم يعون التاريخ جيدا، يعلمون أن الصليبين مكثوا على أرضنا قرنين من الزمان ـ ثم هضمتهم ـ المعدة التى تهضم (الظلط).. يخشون ـ ظهور عماد الدين زنكى ـ آخر ـ يبدأ

الخطوة الأولى.. فيعقبه نور الدين محمود وصلاح الدين وغيرهم ـ نحن لا زلنا نتناول الأمور ـ كمشجعى كرة القدم نصفق لمن ادخل الكرة فى الشباك، متجاهلين جهود باقى الفريق الذى أوصله إلى (منطقة الجزاء)..

[الدكتور فرج برهان.. يرى أن من القى (بيان) الثوره، هو صاحبها اختلف مع منير كثيرا.. ثم جاء مبارك فأهداه كتابه الجديد الذى يؤكد فيه أن الحرية والديمقراطية لم يكن لهما وجود قبل عهد حسنى مبارك..]

منير.. يا صديق العمر.. عد إلىّ، ماذا فعلوا بك، لماذا لم تعد تتحدث معى بنفس الروح الجياشة وتفتح لى قلبك الذهبى».

[نور الدين، عماد الدين، صلاح الدين، جمال الدين، بهاء الدين.. فى ذلك العصر ـ المتداعى، هل كانوا يتحمسون للدين بالفعل ـ أم أنه كان درعا لمصالحهم الذاتية ـ هل كان تمسحهم به نتيجة لما كانوا يكابدونه من هوان.. وقد تنازعوا فذهبت ريحهم فتبددت قوتهم وانفرط عقدهم، من الطبيعى أن يبحث الإنسان ـ عن قوة ـ يرتكز عليها اذ ما شعر بالضعف والخوف لكن هل كان الدين بالفعل فى بؤرة اهتمامهم..]

[الحاج ابراهيم مصطفى، تاجر (المانيفاتورا) شقيق (فكرية) رجل لم يستكمل تعليمه - يدعى أنه قد حصل على الابتدائية القديمة - استولى على إرث العائلة من أجل إنماء تجارته، لقبه المفضل (الحاج) ابراهيم - لا يرطب شفه عطشان، لا يصلى الا هروبا من، موقف - عندما لا يريد استقبال أحد (بالمحل) فهو يهم بالخروج للصلاة.. يلوذ بالمسجد - حتى لا يواجه مشاكل العائلة..]

بعض - الزملاء الذين أمضوا إعارات فى دول الخليج - يفضلون لقب (الحاج) عن لقب الدكتور - أطلقوا اللحى، وأكثروا من إدخال الاحاديث النبوية - المحققه وغير المحققة - أثناء القاء المحاضرات، وعند الآذان بالصلاة يتوقفون.. بل يسبقون الجميع إلى مسجد الكلية (شئ رائع) ولكنهم يودعون أموالهم فى بنوك فى جزر خارج الوطن - وهم أول من يعلمون الأثر الإقتصادى السئ الذى سيتأثر به العامة من جراء نزوح الاموال إلى الخارج (هذه نقرة وتلك نقرة أخرى).

«محمود على عبدالقادر الفكهانى.. فى بداية عمله بالجامعه.. كان يضيق من اختصار اسمه إلى الدكتور

محمود الكفهاني... كان لا يزال يبحث لنفسه عن موطئ قدم ـ شغل نفسه طويلا بهذه المشكلة، أنه الاسم الذى سيوضع على المذكرات والكتب وربما المقالات والأبحاث ـ كان يوقع باسم محمود على، رأى أنه اسم شائع ولكن كان يضايقه اختصار البعض لاسمه إلى (الفكهانى).. لماذا لا يكون (محمود عبدالقادر) لم يعد أحد يستخدم اسماء (عبيدالله).. عادت ظاهرة القرن السادس الهجرى نور .. عماد... صلاح.. جمال، بهاء (هل نمر بنفس المرحلة ويعيد التاريخ نفسه..؟) أم أننا نبعد عن المقاصد الحقيقية وجوهر الدين السامى وكما تدور كل جماعه حول نفسها ـ فى نفس الوقت ـ يدور الفرد حول ما يعود عليه بالكسب المادى ـ غير مبال بما قد يخلفه من رماد فى عيون الآخرين..!

[من الضرورى أن يحاط الطلبه بكل العوامل التى أدت إلى عصور التفكك والانهيار، والتى بدأت نهايتها ـ بسقوط مدينة الرها..]

.. ركب التاكسى ـ عندما لم يأت الاتوبيس أو سيارات الخدمة وعينه تلحظ العداد.. فضل أن يجلس بجانب السائق.. رجل فى الخامسة والأربعين، وعندما التفت إليه رآه

فى الخامسة والخمسين وعندما تحدث تبين أنه فى الخامسة والستين..!

قبل أن يسير بالسيارة مد يده ـ اعتقد أنه سيدير بنديرة العداد ـ لكنه أدار المسجل، شريط به خطبة عصماء من شخص متعصب يخطئ فى النحو ويلحن فى سور القرآن الكريم، صعد الدم إلى رأسه ـ يافتاح ياعليم ـ مد يده وأغلق المسجل، كاد السائق يتوقف فجأة.. ولكنه واصل السير، بعد أن رمقه بعيون غاضبة وفم مبتسم..

ـ الا يعجبك كلامه يا بيك، انه يشتم الحكومة بجرأة!

ـ اليس لديك شريط قرآن كريم..؟

وبينما السائق يوازن بين رؤيته للطريق ـ مسرعا ـ كان يعمل على تفريغ المسجل من شريط الخطبة المرتجله.. ووضع مكانه شريطا آخر.. أدار المسجل.

ـ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد..

ـ عال..

« يتلو كلمات عديدة فى نفس واحد، حاول ذات يوم أن يقلده، تقطعت أنفاسه خلال الالقاء ـ جمال وعزة ـ ضحكا منه

ـ رفقه نهرتهما وأبعدتهما برفق ـ عندما أطلق صوته وفرغ صدره من الهواء وأصر على إضافة كلمة أو كلمتين.. بحثا عن آخر نفس فى صدره فأخذ صوته يتلون كأنه يعانى اختناقا، بهتت (فكرية) لهذه الافعال الصبيانية من زوجها أستاذ الجامعة، طلبت منه أن يكف عن إطلاق صوته (نحن لا نعيش فى الصحراء يا دكتور.. حولنا جيران كلهم آذان صاغية..) لكنه لم يأبه لتحذيراتها التى اعتاد عليها وأغلق فتحه من أنفه وأعاد المحاولة ـ لكن الهواء نفد فى الكلمة السادسة.. كان يود لو أنه جعلها عشر كلمات.. كان مقتنعا أنه اذا واصل التدريب قد يأتى بكلمات أكثر (ربما للشيخ طريقة خاصة ـ يلتقط بها بعض الهواء أثناء التلاوة) عاد الأولاد يضحكون من تجاريه.. لم يغضب.. بل كان يضحك معهم، وحتى يزيل دهشتهم، شرح لهم الأمر، فإذا بجمال يحاول وكذلك عزة.. عادت فكرية..

ـ عيب يا دكتور.. هذا كلام الله، دلعك للاولاد سيفسدهم..

ـ التربية الحديثة ياحضرة الناظرة

ـ كلام فارغ

ـ الديمقراطية ياست هانم، يجب أن نصادق أولادنا ولا نرهبهم

ـ اشك أن التربية هذه، ستجعل للآباء دوراً فى المستقبل

ـ أحدث ما أسفرت عنه التجارب

ـ تجارب الغرب الذى يريد أن يفسدنا..

ـ التربية بالريموت كنترول

ـ التربية هى التربية، تخصصك عصور أسلامية وتجهل تعاليم الاسلام فى هذا الشأن

ـ منك نستفيد يا حضرة الناظرة.»

«العودة إلى الاسلوب القديم مستحيل، لأن هذا يرتبط بشروط فترة معينة من الزمن، لها تقاليدها ودرجة نضجها، لكن هل حقا انتهى دور كبير القبيلة وشيخها المطاع؟ أم أن شيخ القبيلة ارتدى الملابس العصرية..»

نحن نرتدى غطاء الرأس عندما نقابل (الكبير) بينما هم يخلعون غطاء الرأس، نحن نقف فى خشوع أمام (الكبير) كأننا بين يدى الله.. بينما هم يرفعون سيقانهم على المناضد

لتنشيط الدوره الدمويه ولا يجد (الكبير) عندهم غضاضة فى ذلك أو إقلالا من قدره...

«لماذا لم يدر السائق العداد عندما انطلق بالتاكسى، وعلامة الصلاة على جبهته بنيه اللون من كثرة السجود..

جيراننا الذين امتلكوا شقق العماره - احالوها إلى سويقه ولكن ليس هذا موضوعنا، انهم يعيشون على طبيعتهم وسجيتهم، كأنهم لم يغادروا الأحياء الشعبية التى أتوابها معهم إلى العمارات، يصخبون فى افراحهم بالميكروفونات ويصرخون فى أحزانهم بالميكروفونات، الدوله الفاطمية مبتكرة الاحتفال بالصخب الشعبى - لو كان قد تم اختراع الميكروفون وقتها لاعاد المعز والحاكم بأمر الله، النظر فى الاحتفالات الشعبية - الزفه الاسكندرانى، عشرات من الشباب - الفتيان الذين يمتلئون بالصحه والعافية وشغلتهم فقط الرقص بالعشرات... يرتدون الملابس الملونه الشاذة... وينفخون فى المزامير، ويضربون الصنج والدفوف، الرقص جريا وبسرعة فى تشكيلات ارتجالية.. فرق أبو الغيط المطوره، الاغانى الحديثة التى ليس لكلماتها معان محددة.. سوى الغرابة والمعاونة فى دق الطبول ليهتز الجميع، كأننا فى

كودية زار، وقد تلبستنا الشياطين.. الحراك الاجتماعى الذى دفع إلى السطح بأغنياء هم فى الواقع حصلوا على فرص للثراء السريع المكثف والذى تراكم على جلودهم ولم يتغلل إلى الداخل.. فبقوا كما هم، على طبيعتهم التى شكلتها (ظروف وعوامل عديده) يستمتعون بكل ما هو حسى.. (فكريه، تقف له بالمرصاد اذا ما تجاوز صوته فمه مندفعا لعده خطوات.. تكاد تذوب خجلا - تعيد على مسامعه أقوالها المأثورة - يا فضيحتى.. الجيران يا دكتور يسمعونا.. ما بهم الجيران يا حضرة الناظره، يعيشون كما يحلو لهم بدون رابط.. لقد تبدل الجيران حولك يا حضرة الناظرة، كل شئ تغير وأنت لا تدرين..»

المسافة من سيدى بشر حتى الشاطبى مقدرة سلفا بأقل من (جنيه ونصف) - أن يعطى من يمضى فى مدينتنا أجازة من عمله الذى يقبض راتبه بآلاف الريالات أو مئات الدينارات - فى هذه المسافة خمسة جنيهات - فهذا إستثناء وليس قاعدة كما أن الدكتور محمود - قدم سائق بالاضافة إلى أنه سيدفع جنيها ونصف - رشوه مستترة، عندما جلس بجانب السائق، أى سمح له بأن يلتقط (طلبا) آخر فى المقعد الخلفى وأن كان هذا لم يتم فهو قد قدم الخير والمفروض أن يجلس فى الخلف

بحكم عمله الذى لايزال بللرغم من كل شئ - يحظى باحترام المثقفين علي الاقل، وأن كان - شأنهم قد تدهور تحت ضغط (الحرفيين) فى العصر البتروليزيم، لكن بعد أن ادرك (الصليبيون) أن مدخرات الاخوة قد تراكمت بدرجة تهدد (حضارتهم) اذا ما سحبت أو استثمرت في أماكن هى (اسواق طبيعية لتصريف منتجاتهم) كان لابد من خلق - الوازع - وبث النزاع - حتى حدث الانفجار فى سد مأرب - لتطلب بلقيس المدد من (سليمان) الذى يسخر الجن..»

«لكن الدكتور محمود.. يتنبأ - باضمحلال عصر الحرفيين - وعودة الطبقة الوسطى إلى مكانتها الستينية والسبعينية..»

ما كادت السيارة تقف أمام الباب الخلفى للكلية.. حتى استقبله الطالب مجدى خفاجه بوجه متهلل.. محييا

- اهلا يا دكتور.. صباح الخير يا دكتور

واذا بالسائق يرحب به ترحيبا خاصا.. تهلل وجهه بالحبور، بينما شعر الدكتور محمود بالضيق (يعنى حبكت يا مجدى.. انتظر حتى اهبط من السيارة..) السائق يتلمض وينتظر بضعة جنيهات (هو الجنيه والنصف لاغير) ناوله النقود وهو ينظر إلى زجاج مقدمة السيارة المغبش، مساحاته

معطلة الانفاس الساخنة بالداخل والبرودة فى الخارج مع رذاذ المطر.. رسمت قطرات الماء في نزولها المتعرج على الحبيبات الدقيقة المكثفة.. تعاريج، بدت للدكتور - أنها خريطة يعرفها، تنبه على صوت السائق ذى الأحبال المرتخيه...

(حاسب يا دكتور واقفل الباب بالراحة، السمكرية مولعين السوق) ثم أخذ يضحك بلا مناسبة وهو يدير السيارة وينطلق ...

٢ ـ انتصارات الرجوع

حصل الدكتور محمود على رأسه، رفعها أو خلصها من داخل التاكسى وكأنه يلقفها، وهو يرمق السيارة التى انطلقت مخلفه، دخان الموتور الخرب فى المساحة التى بينه وبين باب الكلية.. لحظ عددا كبيرا من الطلبه يقفون عند الباب.. ثم يمضون بحثا عن مدخل آخر، كثير من الطلبه الملتحين..سدوا المداخل يتجمعون فى الممر، توقف، قال له الطالب مجدى (بالسنة النهائية) يدرس الفلسفه ـ الدكتور منير يرأس جماعة المجلة التى يحررها مجدى والتى كلما صدر منها أحد الاعداد وعلقت على الحائط مزقت، وثار الدكتور منير على الدكتور جعفر عطيتو)..

- لا فائدة يا دكتور، أما أن ننتظر حتى يفرغوا من الصلاة وإلقاء الخطب.. أو نذهب من الباب الامامى..

نظر الدكتور محمود فى ساعة يده، كانت الساعة تتجاوز التاسعة والنصف، سأل..

- ماذا يصلون؟

واذا يوجه طالب ضخم البدن - فيحشر بينهما، أكتافه عريضه ولحيته كثيفة، قال:

- الصلاة محببه فى كل وقت يا أستاذ..!

وتقدم، يخلع حذائه وينضم للجماعة، ملأ الدكتور صدره بالهواء، هز حقيبته كأنه ينفض شيئا علق بها، تحرك ماشيا بجانب السور.. تناهى إليه صوت الدكتور (جعفر) يدوى فى الميكروفون اليدوى الصغير.لم يتبين من القافات والكافات ماذا يقول.

قال مجدى..

- هذه الصلاة من أجل سراييفوا يا دكتور

غمغم الدكتور محمود

- سراييفوا... أم م م اليس ثمة صلاة من أجل الشعوب الأخرى المحاصرة والقدس وجنوب لبنان يا مجدى

التصق الطالب مجدى به، جعل فمه عند اذنه وسأل:

ـ دكتور.. ماذا جرى للدكتور منير هل هو مريض؟

عندما نظر إلى مجدى، اخذ يفكر فى رفقه أبنته «فتاه سيئة الحظ، تركت لأختها عزه (الجمال) كان يمكن اذا تقاسمتاه أن يكفيهما، البشرة البيضاء المشربه بالحمرة، تناسق ملامح الوجه، الشعر الكستنائى الغزير، الجسد المتناسق، وسط بين النحافةوالسمنة، فبدت (عزة) وكأنها تتفجر بالصحة، تقع من ناظريها موقع القبول، فيسارع الجميع لإرضائها والتقرب اليها.. أما رفقه ـ لو كان بيده لمنعها من أخذ شئ منه ففى نهاية الأمر ستطرح فى (السوق) وأرنبه الانف المستديرة والعيون المشروطة المنتفخة كعيون فقراء شرق أسيا ـ وبدنها المصلوب على العظام المحدده، ماذا هى فاعله (ببضاعتها) هذه.. ربما كان ـ هذا دافعا لها للإجادة والتحصيل، فقد حصلت على بكالوريوس التربية (لغه عربية) بدرجة جيد جدا، ستعمل مدرسه، يحاول أن يلحقها بمدرسة قريبة من المنزل، لابد من وساطه، يشاع أن أولاد الدكاتره يرثون اللقب، هذا يستلزم عائله ضاربه بجذورها فى أجهزة الحكم، وثراء يكون كالبدوزر يعبر ـ للطالب ـ الطريق.. خدمةبخدمة وكل عين أمامها اصبع..!»

زمان.. كان العمده لا يحبس فى حجرة التليفون سوى (الفقراء) ـ ولا يبلغ الجهادية الا عن أولاد الأجرية ـ أتاحت له ـ الثورة ـ فرصة التعليم، فى أمريكا يتكلف الطالب فى تعليمه الجامعى ما بين خمسين الف دولار، إلى خمسة وسبعين الفا ـ فلا يتعلم فى الجامعة سوى أولاد الأثرياء ـ وعندما حصل على (جيد جدا) عين معيدا.. ثم واصل

تعليمه.. كثيرون انسلخوا.. وصعدوا إلى (فوق) ولكنه لم ينسلخ.. هل هو فخور بأنه لم ينسلخ؟ أم لم تتح له الفرصة للانسلاخ.. هل يمكن أن نحكم على امرأة بانها شريفه ـ دون التعرض لاغراء ومقاومته؟

ولكنه تحدى الجميع.. واختار أن يذكر اسمه (محمود الفكهانى).. «عبد القادر الفكهانى، جده كان لديه بستان يزرع فيه الفاكهة، هكذا أخبره والده لكنهم يصرون ـ على إشاعة ـ أن جده كان يبيع الفاكهة على (مشنة) يحملها على رأسه ويسرح فى شوارع (الفرنج) فى جليمو نوبولو.. واستانلى وشارع وينجت... يؤكد والده، أن هذا لم يحدث الا لفترة وجيزة عندما (حجز) الخواجه على حديقه الفاكهة(ثم يضحك من النكته).

«الولد مجدى، طويل وأنفه حاد، وعيناه جاحظتان، لكنه ذكى ويود أن يواصل تعليمه.. لماذا يتصور.. أن رفقه تسير متعلقة بذراعه.. فأمسك بذراع الفتى وهو يسير بجانبه».

عندما ولج الدكتور محمود الفكهانى من بين سيارات الاساتذة والطلبة التى تتراص فى الطرقات وتملأ الفرغات ضرورى من إقتناء سيارة..)

صعد درج مبنى كلية الآداب.. كان الطلبه النازلون جماعات فى صخبهم، يفسحون له الطريق ـ قسم التاريخ.. انثنى يسارا إلى مكتبه.. تأخر قليلا لكنه رأى بعضهم يسرع إلى المدرج.. بالقطع سيكون استخدام (جمال) للسيارة استخداما أرعن، وقد تتعلم فكرية القيادة.. وعزة.. تريد أن تتباهى.. رفقه هى التى لابد وأن تتعلم القيادة.. قد تضفى عليها نوعا من..»

.. المحاضرة.. عاد ونظر فى الساعة.. لن يشرب قهوته.. التدريب على قيادة السيارات فى سموحة.. سموحة يهودى كان يملك أرضا شاسعة قبلى السكة الحديد بمنطقة سيدى جابر، لعل أولاده واحفاده الآن فى اسرائيل، حقا. نحن شعب حضارى.. ليس لدينا تعصب ضد اللون أو الجنس أو الدين (المحاضرة) غادر مكتبة، بينما الساعى يقترب منه.. بسط قبضته الخالية فى وجهه بمعنى.. (انتظر بعد المحاضرة سأشرب القهوة..) توجه إلى المدرج.. عندما وضع حقيبته وأوراقه على المنضدة.. لم يتأثر اللغط انخفاضا أو ارتفاعا، أخذ يطرق بطرف قلم الرصاص.. وهو ينظر اليهم فى جمود.. بدأ اللغط يتناقص.. ثمة أصوات بلهجات عربية مختلفة.. محاضرته الخامسة للطلبة العرب.. بقى جامدا، خفتت حدة الاصوات.. انتبهوا بالتدريج.. بعض الرءوس تعلوها (غترات) الفتيات معظمهن محجبات، طالبتان منقبتان.. بعضهن فى تسريحات حديثه..ليس المهم ما يوضع على الرأس، المهم ما يوضع بداخلها كراسته بها بعض النقاط، اعتاد أن لا يقرأ من كتاب.. بل يطرح رءوس موضوعات ثم يتناقش حولها، لا ينتظر الذين يكتبون، المحاضرة...»

«من الضرورى أن يحاط الطلبه بكل الظروف التى أدت إلى التفكك، وبكل العوامل التى أدت إلى الانحلال ـ لماذا أحب عماد الدين زنكى ـ مدينة الرها، التى عندما فتحها بعد ما يقرب من قرنين من الزمان وهى ـ صليبيه ـ وجدها لاتزال عربية، تنتظر كل هذه السنين لحظة الخلاص، كانت ـ أول مدينة يحتلها (المستعمرون) وأول مدينة يتم تحريرها من ايديهم..»

على طرف الأجنده رقم تليفـون.. تذكـر أنه يخص أحـد الدكـاتره الذى وقع عليهم الاختيار للوزارة، بعد فشل أهل الثقة ـ الوزير الذى يعود للتدريس.. تفتح له (مغارة على بابا) يغرف من (الذهب والياقوت والجواهر) كما يشاء، يصطف الاربعون حرامى على الصفين، ليهنئوه ـ بما حصل عليه، كان قد كتب رقم التليفون بالقلم الرصاص للقلم الرصـاص استيكه من الخلف.. مسح الرقم من طرف الاجندة.. فـقد ذهب الدكتور إلى إحدى الامارات، يقول (منير) أنه تعاقد على الوظيفة أثناء عـمله بالوزارة، فـقـد كـان زمـيـلا له ويعـرف عنه كـيف يـأكل الكتف..لا يضيع الوقت فـى السؤال، من أين يؤكل أنه يقتنى السيارة الالمانية الفخمة، ويعشق السطو على عقول (التائهين)...

«معظم هؤلاء الطلبة يبغون الحصول على الرخصة.. أم أن بعضـهم قد يتفـرغ للعلم، دارس التاريخ فى حاجـة مـاسـه إلى نصف دستة عـيون.. النظارات الطبيـة على عـيونهم تعكس الاضـواء نحوه لدرجـة الشعور بالحرارة...

(المحاضرة)

(قلنا.. فى محـاضـرتنا السـابقـة).. وسـاد الـهدوء.. الا من صـوته يدوى فى الميكروفون

«إن بلادنا تعـرضت للاحتال، من قـائل أن هذا الاحتـلال الغربى، كان مع الحمله الفرنسية، ومن قـائل أنه كان مع الاستعمار الانجليزى الفرنسى الايطالى الاسبانى.. وقلنا أن الاستـعـمار الاوربى لبلادنا.. كـان منذ وطئت أقـدام الصليبين أرضنا، ثم عاد إلينا فى (عـمـامـه) وتحت رايات السلاطين العثمـانيـين، خـصـيـان ومماليك، ثم خلعوا

العمامه وارتدوا الملابس العسكرية منذ احتلالهم للجزائر..أو مصر.. لقد بدأت محاولاتهم.. منذ أن تشدد الموالى وأسرفوا وغالوا فى تطبيق الشريعة، وديننا الحنيف يسر لا عسر..»

* *

«انسحبت من محاضرته الفتاتان المنقبتان.. وتبعهما.. شابان أطلقا اللحى وقصرا شعر الرأس..»

* *

«شيخنا (الحجيرى) كان يتوارى خلف غمامه خلفتها انطلاقات الصعود، وعندما بدأت العثرات، صلى للهزيمة وانتصارات الرجوع، بقى لفترة طويلة مدفونا تحت ركام من غبار الجياد الرامحة، استكان طويلا.. ثم - فجأة - نفض ثوبه.. وبدا (لمريديه) إماما - يمتلئ بالحيوية ولكنه يفضل أن لا يكون زاهدا فانهالت عليه العطايا..»

فتح الستار فاذا هو - محاط بالاسرار والغموض - تعلق بأذياله المهزومون والتائبون طلبا للنجاة.. فحدثهم باستفاضه (كان يحصل لكل حديث عن اجره المقرر) عن ما بعد الموت.. وكتب باستقاضه بأن الضرائب التى تحصل من بائعى الوهن حلال.. ثم القى دروسا - مذاعه ومسجلة - فى تأويل اللغة العربية - تتضمن تحريم ادخار المال فى الصناعة - وقرر على التائبين - قراءة كتابه، دون أن نطيل التفكير، ثم دعانا جميعا لحقله نتهدج فيها - لتبديد الطاقة الزائدة التى تسأثر بها الشياطين، تضافرت المصالح بين المناطق الحارة والباردة، فأخذ شيخنا على عاتقة تمزيق (البطاقات) وجعل لنا علامة داكنة يتعرف

بها على القطيع المسموح له بالرعى فى الكلأ الوفير.. دون غيرهم»

وعندما امتلأت جيوبه بأوراق البنكنوت، أبطأ من الحركة فجلس على دكة يتحدث عن مظاهر الطبيعة، اذا تناول (الضوء) أوصى بتحريم الشموع..!!

قال الدكتور منير لصاحبه..

«أمر الله سبحانه وتعالى ابليس أن يسجد لآدم، ولكن ابليس أبى، كان فى مقدوره سبحانه (أن يلغى وجوده ويحيله إلى عدم)، هل كان الحوار بين الله سبحانه وابليس آية.. (الديمقراطية)

قال الدكتور محمود.. معجبا بتخريجات صاحبه..

سبحان الله فى أمرك يا أخى، كيف استخرجت هذه المقولة وقد ملأ سدنه العصر صدورنا بأدعية الخلاص.. فبرع على الساحة الكثيرون، ينسابقون فى ابتكار ألوان من الاقوال والاحاجى، يشكلونها - كالحواه - انظر فى يدى منديل ابيض، الآن اصبح حمامة، ترف بأجنحتها البيضاء، فترتبك العقول، واقوالهم تسرى مسرى الخمر فى العروق، تربت وتهدهد الأعصاب القلقه، فتستكين إلى الفتور، تفعل بداخلنا فعل السحر، عندما يتوقف كل شئ عن بذل الجهد، ركونا إلى الراحة والكسل اللذيذ، تبحر طاقاتنا إلى أسفل، فتنشط (الاجهزة التناسليه).. نقود حربا ضاربه ضد (العلم) والذين يخططون حياتنا.. فتقلب النتائج رأسا على عقب، ولا يتبقى أمامنا إلا أن نرهن (الغد) فى (علم) الغيب..»

أجاد الدكتور جعفر عطيتو، حفظ العهد - وفاق أباه عطيتو فى درس اللغة العربية برأس (اعجمى) وحصل على الدرجة العلمية.. ثم خلع العلوم وتمنطق بالادعيه، ودلف إلى حلقه (الذكر) يمسك للمتهجدين بالواحدة - مرة بالصنج ومرات على رتم الكف الغليظ، واخرج عشرات من الكتيبات، أدعيه تستخدم فى العثور على الاشياء المفقوده - راجت لأن الناس فقدوا أشياء كثيرة، ليس لها حصر، بديلا عن ضرب المندل، فى أربعة فصول طوال، يثبت بخطوات منطقية، أن ضرب المندل هراء - فبدا أنه يناضل ضد بقايا الوثنية - وشرع فى الفصول الأربعه الاخرى، يقدم - حلولاً لقضايا العصر، أن تستكين الروح وتتلو نصوصه، فتنفتح الابواب الموصدة، ثم كيفيه الصعود إلى السرائر، والصدور، ولقاءات الحرائر، وما ملكت اليمين، وفى الختام - أدعيه - تقال عند السفر، وأخرى عند النوم..»

سأله.. د. محمود - من باب التوضيح لمحاولة الفهم..

- هل يصلح الدعاء الذى يقال فى ركوب القطار.. اذا ما ركبنا المرسيدس؟

لم يجب جعفر عطيتو على الفور، هز رأسه هازئا وقال..

- ومن أين لك بالمرسيدس أيها الفقير، وانت تناصر توزيع الفقر على الجميع، أنه يصلح أيضا لركوب الدراجات..! -

ولم يحفل بالدكتور محمود وهو يتحسس سيارته الالمانية الفخمة، باشتهاء جنسى..!

لحق به دكتور منير ـ قبل أن ينطلق د. جعفر بسيارته مخترقا جموع الطلبه، مداعبا تطلعاتهم وفاتحا شهواتهم المغلقة.. صاح فيه..

ـ أنظر يا دكتور جعفر، الدكتور محمود الفكهانى، يحسدك

.. كانا يتوقعان ـ أن يترك (جعفر) سيارته الفاخرة مكانها ويعود إلى منزله بسيارة أجره، فقد تخللت محاضراته احاديث كثيرة عن العين ـ التى فلقت الحجر وتأثير الخرز الازرق.. إلا أنه نظر اليهما شذرا.. ومضى (يقودحفلته الفاخرة) غير عابئ بقوة (الحسد) التى تطل من عينى (محمود)

قال محمود.. وفى قلبه حسره حقيقيه..

ـ لأول مرة فى حياتى، اتمنى أن يحدث لزميل حادث ـ ينجو ـ وتتحطم سيارته

قال منير..

ـ هذا ليس حسدا يا دكتور.. أنه حقد.. لذلك سيصل بالسلامة

قبض د. محمود على الهواء بشده وقال..

ـ حسنا، قل لى من أى ناحيه أحسدهم..!

سأل د. منير.. د. جعفر عطيتو ـ وهو بدين منتفخ الاوداج، له وجه طفولى يواريه خلف شعر اللحيه الكثيف..

- إلا يوجد لديك يا شيخنا الحاج الدكتور.. كتاب يتلو منه (ستة) من شباب عائلتي المتواضعه، شيئا يؤدى إلى وصول خطابات التعيين إليهم، لقد بلغ السيل الربى، وليس لنا فى (النفط) نصيب..

فاذا بالدكتور جعفر - لا يثور - ولكنه يهز رأسه - موافقا - ويتوج إلى مكتبه، يفتح أحد أدراجه، ويتناول آخر مؤلفاته، التى تواصل - دار الحكمة الكبرى للتجارة والتصدير، أصدارها، وتوزيعها فى العالم الاسلامى.»

ذهل (منير) وهو يتصفح الكتاب.. ثم قال

- ولكنها نفس الادعية التى ضمنتها مؤلفك فى الطب القرآنى، وهروب الشياطين.. قل لى يا دكتور.. (هو كل وجع تصف له ـ الراوند)!

قال - متخطيا ملحوظة د. منير - أو لم يفهمها..

ـ اجعلهم يتطهرون.. ثم يتلون هذه الادعيه فى خشوع، ايمان المريض فى الشفاء فيه نصف العلاج...

«اعتقل د. منير غضبه الطارئ فى صدره وقال وهو لا يزال ينظر فى الكتيب..

- يعنى، اذا استغرقت تماما وتطهرت وقرأت الادعيه.. يمكن أن يكون لى نصيب فى تعاقد مع جامعة (الكويت)

قال د. جعفر كأنه لم يسمع شيئا..

- قل يا رب.. بأذن الله ستوفق إلى ما تريد

لم يضحك د. منير كما توقع د. محمود، منذ بداية (المشاغبة) بل ثار وماج وصاح فى د. جعفر

ـ يارب، انتقم منه بحق جاه النبى، انت ضلالى ومصدق نفسك

وألقى بالكتاب فى وجهه بعصبيه ظاهرة، قال (جعفر) كاظما غيظه..

ـ سبحان الله فى أمرك يا أخى، أعطيك هدية، تسبنى

وانقلب يشكو لمن تجمعوا من الحضور

ـ شاهدين يا جماعة، أنا لا اطلب منكم سوى كلمة حق، وكاتم الشهادة شيطان أخرس، بعد يومين.. فوجئنا بأن الدكتور جعفر قد تقدم بشكوى المجلس الكلية، طالبا التحقيق الفورى، وإلا اضطر إلى ابلاغ (النيابة) لما لحقه من اهانات (علنية) جارحة أمام شهود ـ وأخذ يلح فى طلب شهود الواقعة ـ إلا أن معظمهم تهربوا ـ ولم يبق لديه سوى (الفراش) وأحد الطلبه الذى شاهد الواقعة وأبدى استعداد للشهادة، صحبة إلى مكتبه وقال له..

ـ ولكن يشاع أن د. منير يرعاك وانت من المعجبين به

ـ الدكتور منير، كاد أن يؤدى بمستقبلى إلى كارثة

ـ ستكون بداية طيبه معنا

ـ بأذن الله..

واخفى ـ جعفر ـ أمر شهوده، وعندما بدأ التحقيق فى (الواقعة) أصاب (منير) القلق، لم يتصور أن يصر (جعفر) على تصعيد ما حدث، وهناك، حاول تبرير ذلك بأنهما ـ أصدقاء وزملاء قدامى وما حدث من باب الهزل معه ـ الا أن جعفر أصر على أن يحصل على اثبات الواقعة ـ كتابه ـ أو يلجأ إلى (النيابة) لأن سمعته تعرضت للضرر فى مكان عمله، حاول (المحقق) وهو (استاذ كبير) أن يصلح

بينهما بالحسنى ويترك لهما فرصة التراضى، لم يرضخ (جعفر) للوساطات قال للدكتور محمود.. أنت صديقه الحميم، ابتعد أو اتهمك بتحريضه.. لقد هزأ بى وسأستخدم حقى القانونى..»

قال منير وهو لا يعرف كيف يسيطر على انفعالاته..

ـ يا دكتور جعفر، أنت تحرض الشباب على عدم التعامل مع (الدوله) وانكار قوانينها والاعتماد على قوانينكم.. اليس الاجدر بك، أن لا تعترف بهذا (القانون) أيضا، أم أنك تتمسك بحقك القانونى وقتما تشاء..!

قال جعفر فى هدوء يثير السخط..

ـ لن أرد على هذا الجدل، سبحان الله، يشتمنى ويلقى بالكتاب فى وجهى، كيف أتنازل عن حقى..

اقترب منه (منير) كأنه سيقبل رأسه، شجعه على ذلك (محمود) قائلا..

ـ المسامح كريم يا دكتور جعفر ـ دعه يبوس رأسك، وننتهى..

ولكن (منير) مال عليه وقال له فى اذنه..

ـ أنت نصاب، وان لم تكن محتالا حقيقا ما غضبت، هكذا ينزعج اللص، عندما يخاطبونه بهذه الصفه، وكتابك فالصو.. لو قرأته ألف مرة لن يأتى خطاب التعيين..وإلا اذا عملت الدولة على ايجاد وظائف للشباب..

تخلص جعفر منه.. فى ضيق ـ صا نحا فيه

ـ وانت كافر ـ شيوعى

وإذا بالدكتور منير ـ كالفيلسوف الذى كان يبحث عن الحقية ـ يصيح..

ـ شاهدين يا جماعة.. الحقونى بوكيل النيابة.. اثبتوا هذا فى محضر رسمى، يتهمنى بالكفر والشيوعيه.. يريد تشويه سمعتى أمام الاستاذ الدكتور الفاضل، وتدخل الاستاذ الدكتور.. قائلا..

ـ دكتور جعفر، نحن جميعا سمعنا، اتهامك للدكتور منير بالكفر والشيوعيه بدون دليل وهذا يعتبر قذف فى حقه، ثم أنى سأتلو عليك شهادة الطالب مجدى ـ أنه يناقض ما جاء ـ فى اقوالك تماما.. ويتهمك بأنك كنت تستخف بعقل الدكتور منير أمام الجميع فألقى بكتابك على مكتبك وانصرف.»

ارغم الدكتور جعفر على ـ الصلح ـ ولكنه انصرف غاضبا ـ معلنا أمام الجميع أنه لن يتنازل عن الحصول على حقه كاملا.. وفى أى وقت يشاء ـ معلنا (أنا وأنت والزمن طويل.. يادكتور منير)

* *

وقفا إزاء (شهادة) الطالب مجدى ـ فى حيرة ـ اخذا يقلبان هذا الموقف على جوانبه المختلفة، انزعج منير ـ قال لصاحبه ـ سألت الطالب لماذا فعلت ذلك وجعفر لديه كثير من الاعوان يمسكون بتلابيت دراستك، وهو عامك الاخير، وأملى أن يكون لك تقدير تزاحم به المعيدين.. قال أنها السياسة وألاعيب ميكانيلى، برد الوسائل بالغايات»

في المقهى.. كف (منير) عن التدخين وقال لصاحبه..

ـ على فكرة، الولد مجدى، سيكون له مستقبل مرموق وخاصة بعد سقوط وانفراط الاتحاد السوفيتى..!

لا يدرى د. محمود لماذا كلما جاء ذكر ـ مجدى ـ تذكر ابنته (رفقه) والشئ بالشئ يذكر.. أخذ يقص على مسامع صديقه ـ آخر أنباء (فكرية)

ـ جاءنا عريس، فكرية أطلقت عليه لقب (اللقطه)

ـ اللقطه.. تعنى باشا جديد

ـ ربما يكون قد اكتسب (البكويه) فهو (صيدلى) يبيع العطور وأدوات التجميل مع الفيتامينات والمقويات

ـ وهل تنازلت (المدام) عن طلب (البترو دولارزمان)

ـ هناك مشكلة عويضه

ـ خيرا

ـ جاء ليطلب يد الدلوعه (عزة)، أنه لا يعلم شيئا عن مواهب (رفقه)

ـ يا أخى.. دعه يحضر وسيله نقل ويحمل..

ـ ولكن (عزة) فى حجم ساقه

ـ طويل

ـ بدين، يكاد أن يكون فيلا ابيض

ـ الرجال السمان طيبو القلب

ـ أخشى كسر قلب رفقه

ـ ليتني كنت شابا، لتقدمت على الفور وانحنيت أمام رفقه طالبا يدها..

و أخذ منير يواصل التدخين ربما سارع بالاندماج فى التدخين عندما تسرع والقى بهذا العرض على صديقه محمود الذى لم يأخذ العرض مأخذ الجد ـ أمنيته، هى من باب المجاملة،وأن كان قد ـ توقف عندها بعض الوقت، فارق السن بينه وبين منير ـ ليس كبيرا، أربعه أعوام تقريبا.. وأن بدا منير طويلا جافا ـ ألا أنه يحتفظ بكثير من الحيوية، لا يميل إلى ارتداء البدل، هو فى ملابسه (الاسبور) قد يبدو أنه لم يتجاوز الاربعين.. ألا أن شعره الخفيف قد غادر مقدمه الرأس وتركز فى فوديه (رماديا).. يعلم محمود لماذا بقى منير بدون زواج.. ليس زهدا ـ فهو يعرف عنه الكثير. يعيش منذ فترة طويله حاله من الصداقه والعشق مع سيده (جميلة) تحول ظروفها الخاصة بينها وبين الحصول على الطلاق.

كان يقول له محمود: أنك تترك (العمار) وتدلف إلى الصحراء وحدك لماذ تبنى بيتك بعيدا عن الخدمات المتاحة. لماذا تبتعد عن (مصادر المياه)

كان منيريرد: سيكن ليبنى بئرا خاصه، سأحيل الهواء والشمس إلى طاقة حركه مادامت هى معى!!

ـ ولكنها على (ذمة) رجل آخر ـ تتركك وتذهب إليه لتمنحه حقه القانوني.. ويبقى دائما ـ ما بينهما ـ معلقا.. كل منها عند نقطة لا يتزحزح عنها محمود تحكمه الاخلاق ـ ومنير يتحكم فيه الحب ـ هى لا تستطيع لاستغناء عن (ثراء) الزوج.. فيلته وأمتيازاته ـ أو لعل الزج لا يزال يمسك عنقها بقبضه مرتخيه، تخشى أن أثارته، ضغط عليها

وخنقها - كان يوما - ضابطا ثم سياسيا فى فتره معينه - بعدها صار تاجرا - انواد ثراؤه فى فتره الانكسار، فضل البقاء بعيدا - خارج البلاد - لعله منفى اختيارى - ولأنها تدرك أفضاله على أخيها تخشى أن يتخلى عنه.. أو يتعرض لتنكيل أصدقائه القدامى - فقد آثرت - بقاء الارتباط به - والهرب إلى صدر - حبيبها - وكلما طفت (المشكلة).. أغرقاها فى لقاءات عاطفية محمومة - لانها تدرك أيضا قدرات حبيبها والتى ما تزال تحبو فى اقتناص (المال).. قد يصوب بندقيته إلى بضعة آلاف وقبل أن يضغط على الزناد - يتركهم يفرون - كالغزلان الجامحة رأفة بالجيوب الخاوية! - يعيش بمثالياته القديمة، فى زمن انقلبت فيه المعايير والقيم - واصبح لرصيد البنك - القول الفصل -

(أن من يهتم بجمع المال (كزوجها) لايدرس الفلسفة كحبيبها) وقد يخطر على ذهن محمود - زواج الرسول الكريم من عائشة.. ولكنه ليس كأبى بكر.. كما أن (منير) - برغم الصداقة الوطيدة بينهما - فى الأرض والرسول فى السماء، وقد يخطر له، كيف تستطيع رفقه اذا استثنى فارق السن وزللت كافة العوائق - أن تحل فى حياته مكان (نادية) التى ملأت الجانب العاطفى حتى الحافة، فتفرغ تماما لحياة دون ارتباطات اندفع يملؤها بالنزوات والدراسه والبحث والصراع، أشياء تحرك ركود الايام، يفتقدها محمود، ويتطلع إليها لكنه يفضل السير على الطوار.. ورؤية.. مغامرات صاحبه - الذى يسير فى عرض نهر السيارات المندفعة - غير مبال، بمقدره السائقين على تجنب الاصطدام به.

٣ ـ دكان الكلمات

فى أيام البحث عن (عضد) ليمنح المتعطلين وجبة طعام مجانية، كان (عطيتو الأب) يقبع فى الجلبات الابيض القصير ـ تحت اقدام شيخه (الحجيرى).. يتلقط الفتات مما يتساقط من (فم) مولاه.. يتدثر برفق الحروف الصوفية، يهيم فى (التجلبات) القديمة والاقدم، يحشو رأسه بالتفاسير الحجرية، ومعدته بالمعانى المولده من المصالح المترابطة.. فبدا للحجيرى أن عطيتوقد أسلم ذاته متعبدا فى محرابه، لا يغادره الا لماما (ليطمئن على مسيره ـ جعفر التعليمية ـ ويعود سريعا ـ حتى لا يحتل مجلسه مريد آخر، وحتى ـ يطمئن مولاه ـ أنه لا يستطيع الابتعاد عنه ويفضل مجلسه عن الولد..)

قلم اظافره آلاف المرات، حتى بدأ يستحوذ على جزء من اهتمام ـ الحجيرى ـ

ـ أراك قد اتقنت اقوالى يا شيخ عطيتو، واصبح لك لسان نجيب

قال عطيتو فى تواضع المنكسرين..

ـ لازال أمامى ـ فى رحاب عالمك الفردوسى... سنوات

ـ تتمتع بذاكره حديدية، سأستغنى عن فتح الصحف، طالما كنت جالسا عند مرفقى

ـ سأجلس دوما عند قدميك، تبركا يا مولانا

ـ يمكنك أن تسطر ماألقيه، حتى لا تتعطل مسيرتنا، ولك فيما تكتبه نصيب

ـ هذا عطف لا أستحقه، كيف يقرن اسمى النكره باسمك الجليل

ـ ليكن لك (الاعداد) وقد ينعطف الزمن نحوك.. نسيناك طويلا ياشيخ عطيتو

بارك الله فيك يامولانا.. يكفينى أنى بالقرب منك، أملأ روحى من ضيائك

ـ هكذا.. على بركة الله..

* *

وقف عطيتو على باب الدكان ـ يبيع ـ كلمات (الحجيرى) التى وجدت رواجا وسوقا، ظهرت مهارة الرجل فى خدمة العملاء، وهو يقدم (البضاعة) مغلفة ومعبأة بصوره غاية فى الروعة والمظهر الحسن، مزدانة الاغلفة بالنقوش الإسلامية، إلا أن الشيخ (الحجيرى) كان رابضا فى توثب وثبات، وتحت ابطه (خزانة المال)، بذكائه، يخشى أن يظلم أحد (العملاء) فيأخذ منه اكثر مما هو مطلوب ـ لذلك

فقد أخذ على عاقتفه أن يقوم (هو) بحساب العملاء (ماليا) بنفسه ـ و أن يبعد مريديه عن الشبهات وينأى بهم، بعيدا عن سحر وإغراء الدولارات والريالات والدينارات ـ برغم أنه مصدر كل الكلمات المعبأة ـ يأخذ على عاتقه أيضا تجميعها فى اكياس ـ واخفاءها بعيدا (ينتظر أن يسمع كلمة آمين) من كافة العاملين والمعاونين فى مجال الدعوة، ويرقب الجميع بعيون ثاقبة.. فيجد أن (عطيتو) لم يبد عليه التبرم أو التدنى إلى طلب متع الحياة الزائلة، فهو ينغمس فى قضاء شئون مولاه وقد بدا لمن يراقبه ـ أنه بالفعل تخلص تماما من أدران الماده، صار شفافا وروحانيا فاطمأن (الحجيرى) وسر بأن تابعه يرتدى جلبابا دون جيوب.

* *

كان عطيو ـ فى الواقع ـ يقف من (مولاه) موقفا وسطا، بين الشك واليقين.. ومن طبيعته الصبر الطويل، ولكنه لم يصدق ـ بصورة قاطعة.. أن هذا كله لوجه الله، مضى فى البداية ـ يود التقرب خيرا لله، ثم استحال إلى وظيفة ـ يحافظ عليها ويتفانى فى ابراز مزاياه فيها.. وعندما اطمأن له الشيخ، تحقق ما كان يتطلع إليه، فقد دعاه مولاه لاصطحابه معه إلى قصور الامراء فى الصحراء المزروعه بالحديد.. ..دارت رأس عطيتو، عندما خطا بداخل القصور.. ولمست اقدامه السجاجيد.. وجلس على الرياش.. وازدرد الطعام واحتسى المشروبات.. شاهد عالما آخر، فأخذ يقارن صوره (الجنة) التى كونها فى خياله.. بما يعيشون فيه.. انها الجنة، التى وصفت للمتقين الا أن من يجوسون فيها ليس هم الابرار!!

(واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون - إلا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) - (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) وارتبكت خطوات عطيتو، اختلطت الحقائق بالاوهام، عندما سرى إلى شيخه رهط من المنافقين يجالسون الامراء ووجوهم خاشعة ثم يختلون بمولاه وهو معه، فاذا هم يكشفون له ما سترته اللحى والعباءات الشفيفه المطرزه بالنقوش الذهبية - فلا يغضب مولاه، ولا ينصح، ولكن يميل إلى أضعف الايمان..»

تساقطت داخله أيامه ولياليه، تلفت حوله فلم يجد سوى الرمال الجرداء - يرقص فوقها شيطانه، مال إلى الشك فى أن الحجيرى، يعمل لدنياه كمن سيعيش أبدا ولا يعمل لآخرته مثقال ذرة.. كأنه لن يموت غدا..»

ماذا - تملك - حتى تفعل؟ لا شئ - عليك بالصبر والصلاة - فرأى الحجرى بأن تابعه، كلما اقترب من النعيم ازداد زهدا.. فقربه إليه أكثر (لقد تخيرتك يا شيخ عطيتو، لتصحبنى فى زيارة المراكز الاسلامية خارج البلاد..) وأخذ عطيتويتمادى فى اثبات زهده، أتى بالمطرقة والمسامير - واخذ يدق اطرافه - المال ملعون، يبعث النشاط فى أوصال الشياطين - لتتغلب على تقواك وصلاحك، عليك بطرح مغريات الدنيا الزائلة ذلك يخلصك من ضعفك، يردم الرغبات الدنيوية الحقيرة، ويعلى من قدرك عند الله»

حمل عطيتو بين يديه الحقائب المكدسه بالأموال - جمعت من أهل الخير خارج البلاد، الذين يهمهم معاونه فقراء المسلمين لوجه الله، وضعت الاموال بين يدى (الحجيرى) فهم لا يودون أن تعرف يدهم

اليسرى ما اعطت اليمنى، رأى - مولاه - بعد عودتهم قد قام بايداع الاموال فى خزائنه الخاصه.. ثم تناسى الأمر، هنا - كانت كلمات شيخه تتساقط بعيدا عن قلبه وعقله.. تسقط كالجمرات داخل نفسه - لقد برع فى (التمويه) على أن يكافأ لكن شيخه لم يمنحه سوى الاقوال، (فى الطائرة.. تحاور شيخه.. مع داعية آخر.. كان يدعو المسلمين إلى نبذ الخلافات التى بينهم.. وأن تتوحد مصالحهم تجاه أطماع الآخرين فى ثرواتهم.. وأن تردم الهوه بين الفقراء والاغنياء - ثم تطرق إلى (العرب) واخذ يردد أقوالا كان الشيخ قد - تخصص - فى لعنها قبل وبعد لقاء الامراء (وحده العرب، القوميه العربية) وأخذ هذا الداعيه - يفصل بين ما تمثله - هذه الشعارات من قوه دفع للعرب حتى يخطوا على ضعفهم وتفككهم.. من الذين رفعوا هذه الشعارات يوما وأخذ يردد - أن هذه حقائق موجودة قبل وبعد من رفعوها - هل نترك الخير - لأن أحداً (ممن لا نرضى عنهم) اتبعوه يوما.. أما اننا مطالبون بالابتعاد - حتى لا نمسك مقود - حافلتنا - بأنفسنا ونسبق - أو نسير بحذاء - الآخرين -) رأى عطيتو - شيخه منكمشا، ضاعت بلاغته اللغوية أمام - حقائق هذا الداعيه الشاب، فتحت فى سكون نفسه قويا - تساقط منها - شيخه - مفتتا.. رآه يمجد الانكسار، ويحى الضعف، ويهتف للهوان، ويوافق على التبعيه.. ثم يأخذ كل الاموال لنفسه (لا يختلف عن الذين يخطفون ويهربون) امتدت يد (شيطانه) تقبض على قلبه وتدير عقله فى اتجاه آخر.. لا زالت كلمات هذا الداعيه الشاب - تزلزل الطبقات السميكة التى رانت على عقله - فى (كابول) اقمتم الدنيا ولم تقعدوها لأن (كارمل) اختار النهج الاشتراكى لتنمية القبائل الافغانية - ولم يدر أن لكل قبيله مصالحها سقط كارمل الاشتراكى وتسلم الاخوه المجاهدين الحكم،

مـاذا فـعلوا بشـعب الافـغـان ـ ولماذا انخـرست الألسنة؟ الآن ـ نوجـه الانظار إلى.. (البوسنه) ـ التى ليس للغرب مصـالح فيهـا ـ والا بادروا إلى شن حـرب شـاملة كما فـعلوا مع العراق ـ ومـاذا عن (الدويله) التى (تملى) شـروطها على العرب وتـحقق (بالسلام) مـالم تـحققه بالحرب.. والشـعـوب العـربيـه تتـقـاتل.. والعـقـوبات ـ تنفـذ على الشـاردين ويتم حصارهم وتجويعهم..»

كانت (ملاحظات) الداعيه الشـاب.. تمسك بخناق الشيـخ الحجيرى ـ رآه ـ عطيتو مـختنقا، جـاحظ العينين، يـحاول الافـلات بمقاومـةواهنه، مـاذا يقول وقد امتـلأت حقائبه بالمال ـ ليستـعين ببعضـه (المجاهدين) فى حـوارى القـاهرة.. ونجـوع وجـه قـبلى حـتى لا يعـود ـ الرجل (الاسـمر) من القبر ـ ويدعو إلى أن ـ ثروات العرب للعرب، هنا أدرك عطيتـو، لماذا كـان يصلى ـ مـولاه ـ للانكسـار ـ الا أنـه بادر ـ وسـيطر على نفسـه التى لم تعتـد على (زحـام) هذه القـضـايا، فنحـاها جـانبا، لكنه لم يتمكن من سـد كل الثـقـوب ـ التى كـمـا يمكنهـا تصـريف مـا بداخله، بالضـغط ـ يدخل من خلالها بعض الضوء.

* *

كانت أم جعفر قد توفيت منذ زمن بعيد، ولشيـخه ثلاث من الحريم، احداهن (كوثر) كان شيـخه دائم الخلاف مـعهـا، فهجرها وقتر عليـها، وجعل من (عطيتو) واسطة بينهمـا، اسكنها حدى الشـفق التى اهديت له ـ من شـركه مقاولات، مقابل (فتوى) تنشر فى أجهزة الاعـلام ـ بأن الحصـول على فوائد المال من البنوك غيـر الاسـلامية (كمن يزنى فى أمـه) وكـان فى مـشـاغله وأسـفـاره العـديدة (قـبل الرحلة والتى بددت

أوهام عطيتو ورفعت عن عقله الخمار) كان يقف بالباب مطاطئ الرأس، خافض النظر، يستمع إلى طلباتها - أو يناولها ما جاء به، لا يستطيع أن يطيل النظر فى طرف ثوبها، كانت السيدة (كوثر) تخاطبه من وراء نقاب، لكن اريجها، كان يبقى عالقا بأنفه، يبتهل إلى الله أن لا يتسلل بداخله، حتى لا تصحوا باليه رافعه رايات الجنوح، إلا أن اباليسه تثبته جامدا فى مكانه حتى يملأ أريجها صدره معرضا أسوار قلبه الموصده لموجات من السهام والحراب (يدعو الله أن تطيش، ثم يعود ويردد اذا لم تطش فهذه اراده الله - اذا مارشق سهم فى قلبه - نعم فى هذه المرة، تحريد بداخله الأمانى السكيره، تمور داخله، تطرق أبوابه بشده.. فتتفتح الابواب.. كان يتغلب على ذلك بتلاوة القرآن، ولكن بعد العودة من بلاد الرغبات الطليقة وسقوط هاله القداسه من فوق رأس الحجيرى - لم يتمالك سوى أن يطلق العنان لأمانيه، أرخى القبضه فانفلتت وربما أخذ يتبعها عن قرب.. اقترب أكثر من الباب، خاطبتها عيناه ولفها من قمة الرأس حتى أخمص القدم، لم تحفل أ تتوارى، هى تراه من خلف حجابها الشفيف، ترى عينيه، عاد يتحسس بدنها الذى يرفل فى الثوب الحريرى الفضفاض، أطال الزحف والتلكؤ.. فأطالت الحديث، لم يكن مهما - ولكنه كان ضروريا لمن يعانى الوحده، وقبل أن يتخذ القرار المجازف، خطا إلى الداخل وأغلق الباب برفق، على غير المعتاد - أبلغته خلال الحديث أنها وحدها، (اذا اردات أن تحتج لماذا لم تفعل؟) أو تبد بادره انزعاج فى فى صوتها الطيم، أخذ يواسى وحدتها وهجرة مولاه لها، ففتحت له خزانة الاسرار.. وراح لسانها يعترف، متدفقه بالشكوى والالتياع من ذلك الاهمال المتعمد.. حاول أن يضع أمامها مبررات سيدة - لتقفز عليها وتتصل بالقرب منه، قال..

- أن وقته مزدحم بالدعوة والجهاد..

وكأنه ينكأ الجرح.. فصاحت..

أى دعوه وأى جهاد يا شيخ عطيتو، هذا رجل ليس له الا نفسه، هل لازال يخدعك كما يخدع الآخرين، أنه يكتنز المال لنفسه ويدعو كل من حوله إلى الزهد..

قال، ليخفف من حدتها..

- مهلا يا سيدتى..

ألا انها كانت قد انفجرت سخطا..

- أنا لا أخشاه، وأسأل نفسى لماذا تزوجنى، لقد خدعت فيه مثلكم.. إن لجسدى على حقا، فأنا.. منذ.. (ثم أجهشت بالبكاء..)

ما كادت تفيض من ثورتها حتى كان شيطانه قد نسج حديثا، فى ظاهره التقوى فى باطنه يزيد النار اشتعالا.. دفع فى أذنيها بجمله من أخبار مولاه مع زوجتيه الأخريين وكيف يخصهن وأولادهن بكل ما تشتهيه الانفس - مدللا على كرمه - وكيف (يسعد) بقضاء لياليه فى احضانهن، جففت - كوثر دموع - هكذا اراد - وحل محلها التحدى السافر - اندفعت تزيل صورته من الجدارن، فى اندفاعها، يلتصل الثوب الحريرى بتضاريس النضج فى الجسد الغاضب فى فورانه، يراها انثى شهيه، حملت (اطارا) تود أن تحطمه، رفعته فوق رأسها، لكنه بادر باندفاع تلقائى للامساك بذراعيها.. وتهدئتها شعرت بقوة ساعديه، كما أحس بليونه جسمها، استشاطت مرة أخرى، كأنها تدعوه لاعاده الكره، وتسقط فى احضانه تنتفض - فاحتواها (تأكد لها

رغبة الرجل فيها) كان قراره الذى بدأ فى الطائرة بجانب حقائب مكدسة بالأموال.. وحسمة الآن.. أنه لم يتصور أن يحدث هذا سريعا أن يبدأ باحدى زوجاته، اكثرهن شبابا وجمالا.. كان كلاهما يود الانتقام من الحجيرى.. قالت كوثر وهى تغالب البكاء ـ وقد ابتعدت عن صدره.

ـ ماذا أنت ظان بى يا شيخ عطيتو

ـ امرأة مظلومة وقعت فى يد ظالم

ـ لن تهدأ نفسى إلا اذا حصلت على الطلاق

قال وأثر احساسه بها فى أحضانه باقيا

ـ وأنا ـ أعدك ـ لن يهدأ لى بال حتى.. أتزوج منك

لم تعارض، للحظات بقيت مشدوهه، ثم انخرطت باكية ـ رفعت النقاب عن وجهها كان للوجه الباكى جماله الاخاذ ـ احتواها مرة أخرى، ضمها بشده حتى تكف وهو يردد فى أذنها

ـ يا للجمال.. سبحان الله

كيف عاش كل هذا العمر فى كهف الاموات وعلى الارض هذه الآية الرائعة؟

كانت الاجابات دفقات من القرائن التى تدمغ (سيدة)، الآن سيرفع شعار الجهاد ـ ليس مع الجماعات ـ ولكن من أجل القضاء على هذا الدعَى (ثم رغب فى الاختلاء بنفسه فى اجتماع طويل لإعادة النظر..)

«بضاعة مولانا حاضره ومطلوبة بحماس.. والدكان مفتوح وهو بائعه المدرب، واذا ما أعلن الانقلاب ضده، ستكون من نصيبه رصاصة صناعة محلية، أو العزل، ليقف في في طابور المتسولين خالى الوفاض، وتضيع من يديه (كوثر) التى رشف منها رشفة الشفاء، فمن يهتم بما يقدمه لمروق مولا، وعملاؤه جماعات من المارقين و الضالين، وقد اختلط جهادهم بوظائفهم، فكان منهم المحترقون، الذين يتعيشون من المظهر الورع، لن يكون فريسه سهله لصبى أرعن لا يعيأ بحكم الاعدام، خزانته وأمواله أمامى، ومفاتيحها فى ملابسه، ودولابه خلف ظهره، فيه الشرائط والأقوال والصحف التى ينقل منها.. لقد طال به العمر وهو الذى يردد دائما (كل شئ مقدر ومكتوب)، خلط له قليل من السم في مشروب القرنفل وسقاه، انهاجرعة لا تميت.. فمرض الحجرى.. حصل على المفاتيح نسخ منها نسخة خاصة به، وأعادها مكانها.. تلقى تعليمات الاطباء، بمعدل جرعات الدواء فضاعفها.. تدهورت صحته.. لزم الحجيرى الفراش وهن الصوت وقويت الرغبة عنده فى التمسك بالدنيا (الفانيه)..!

ـ سيدى أننى لا أريد أن يراك أحد.. ضعيفا فى فراش المرض، سأدعى أنك سافرت تجاهد فى أرض المسلمين الساخنة لتكون فى أول الصفوف حتى يكتب لك الله الشفاء، فوضنى عنك ـ اذا كنت لاتزال تثق بى..

ـ لا بأس يا عطيتو

ـ اليس هذا كذبا يامولاى

ـ هذا كذب أبيض، تستر به استاذك، فلا تبتأس يا عطيتو

استمر فى علاجه العكسى، فأخذ يقترب من النهاية.. أمضى الليالى ساهرا تحت أقدامه ـ فتح الشيخ عينيه..وقال بصوت مختلج..

ـ لا متنانى لك يا شيخ عطيتو، إليك بألف جنيه.. هبه

ـ ماذا أفعل بها يا مولاى.. وقد انفقت على جعفر.. وكنت عائلنا.. أنا لا أرغب إلا فى دعواتك المباركة لى.. فأنا خادمك الامين.

«أعاد الحجيرى النقود إلى أخوتها، كان عطيتو يرمقها ويتذكر اين حفظ المفتاح، قال الحجيرى:

ـ بارك الله فيك يا شيخ عطيتو، هكذا يكون الورع، أكثر الله من أمثالك

قال الحجيرى وقد شعر بنهايته:

ـ أخشى أن تكون النهاية يا شيخ عطيتو

أخذ عطيتو ينظر نحو الخزانة ويقول..

ـ بل هى البداية بأذن الله..

ـ أليس من الافضل أن تعلن أننى مريض من شدة الجهاد.. وتطلب من أبنائنا وأخوتنا فى (الحكومة)الموافقة لنا على سفرى للعلاج على نفقة الدولة..!

ـ يا مولاى ألا تذكر أنك القائل، أن المرض من عند الله كما أن الصحة من عند الله وان تدخل الاطباء بالعلاج هو تعطيل لاراده الله سبحانه ومحاوله للاعتراض على مشيئته.

ابتسم فى وهن.. قائلا

- هذا من أجل رواج طب الأعشاب يا عطيتو، هى تجارة لا تحتاج إلى صناعة وكيميا، وحتى نضعف شوكة العلماء.. ونصرف انظارهم عن البحث.. و ....»

- لا ترهق نفسك يا مولانا بالحديث.. فأنا أعلم - بحكم عملى الطويل معك رسالتك الحقيقة..

- لقد فعلنا ما فى وسعنا يا عطيتو.. فليكمل (تلاميذنا) الرسالة.. عندما وافى (الحجيرى) الأجل، كان عطيتو قد نقل معظم أمواله وجواهره ونفائسه إلى بيت (كوثر)، وكذلك محتويات الدولاب من (البضائع).. وقدم للمريدين والمنتفعين ميثاقا ممهورا بخلافته.. طيرته وكلات الانباء، ونشر فى الداخل والخارج.

وبعد وفاء شهور العدة.. تزوج (الخليفة) من السيدة (كوثر)، وسافرا إلى (أوربا) لقضاء شهر العسل، ولاحقته الهدايا من جهات مختلفة، من بينها (شيك) على بنك فى سويسرا بنصف مليون (شيكل) دفعه أخيره كانت طرفهم من أصل (مبلغ) تسلمه الحجيرى للمعاونة فى (الجهاد)، مع خطاب يهنئونه فيه بالخلافه ويتمنون له بذل مزيد من (الجهاد).. لكن عطيتو - لم يكن قد تسلم وصية الخلافة - بل اغتصبها، لذلك لم يكن يعلم - حقيقة معاملات سيده خباياه فلاذ بالصبر - على أن تكشف الأيام - ما خفى أو غمض عنه.

وفى (الأتيل) بسويسرا.. جاءه (خواجه) طلب مقابلته - قدم له هديه الزواج - عقداً من الماس للسدة حرمه.. حدس عطيتو أنهم أصحاب (الشيكلات).. سأل على الفور..

ـ ماذا تريدون منا، تحديدا يا خواجه

فأخذ الخواجه يتحدث عن طفولته فى احياء مصر الشعبية.. ثم قال..

ـ نحن كالعادة ـ لا نريد منكم سوى ما كان يفعله (الحجيرى)

ـ وماذا كان يفعله مولانا.. ونحن لم نفعله..؟

ـ ألم يوصيك شيخك ـ بالعمل الدؤوب على تغييب العقل ـ بالطريقة التى ترونها مناسبة ـ نحن ندفع الفاتورة.. مهما كان حجمها..

قال عطيتو

ـ هذا شئ سهل يا خواجه، العقول عندنا فى (الويك اند)

نو.. نو.. آى وونت هيم أن اوبن هوليداى

ـ انشاء الله.. ولا يكون عندك فكر..

انصرف الضيوف بعد إلقاء مزيد من كلمات التشجيع له، ووعود بأنهم سيواصلون ارسال الهدايا العينيه والنقدية، متمنين للحجيرى (الرست) فى جنة الخلد..»

كان (خادمه ـ حبظلم) مريده وحارسه ـ لا يحلو له الجلوس إلا تحت اقدامه، صامتا وكأنه غافلٌ عن ما حوله.. عندما نفخ عطيتو الهواء بعد انصرافهم، رفع حبظلم ـ وجهه إليه (فاستغفر الله العظيم)

ـ مولاى عطيتو هل فهمت ماذا يريدون؟

ـ يخيل لى أنك كنت مستغرقا فى التسبيح فلم تلم بشئ. يا حبظلم

ـ كلا يا مولاى، فأذنى كانت معكم.

ـ وماذا فهمت ـ يا شيخ (حبظلم)

ـ يقولون أنهم لا يريدون إن يكون ـ العقل ـ فى اجازة نهاية الاسبوع، معنى ذلك أنه سيعود للعمل نشطا مره أخرى، بل أنهم يطالبون أن يكون العقل فى أجازة مفتوحة وهى عندهم ـ تعنى أنهاء خدمته..»

ـ أفادكم الله يا شيخ حبظلم

أطرق بتأمله وقد استغرق فى تسبيحه، رأى نفسه منذ سنوات، عندما كان يجلس تحت قدم الحجيرى وعقله يهدر، شعر بجفاف الحلق، لقد استشعر مصيره فامتلأ قلبه بالرعب، وأخذ يقدح الذهن، كيف يتخلص منه ـ وقد كشف له ذكاؤه وعقله الذى يعمل.. لم يكن أمامه إلا أن يصبر بعض الوقت، كان ابنه جعفر قد انهى دراسته وأطلق ذقنه وجلس تحت اقدام (مولاه) الوالد، وأتى بعقد فى أحدى (الامارات) لحبظلم، وأوصاه أن يعمل بهمة وذكاء هناك..!!

* *

د. جعفر عطيتو ـ كتابه يشتريه الطلبة أول العام ـ ثم يتفرغ لنشر رسالته المقدسة داخل الجامعة وخارجها، وأصبحت أهم المهام الذى يقوم بها مع أعوانه.. تصفيه العقول المستنيره.. بشتى الوسائل.. ونشر (التفكير) الخرافى بين الناس وعندما وجد د. منير (بقعه ضوء مشعه تنير ما حولها) قذف عليها أحد المقاعد، كفتوات الحارات.. عندما يقلبونها ظلاما.. حتى يمكنهم.. فرض سطوتهم كامله (وسرقة) جيوب المدعوين.

٤ـ مشاوير الصعود والهبوط

«النازل»

منذ أن تجاوز (إبراهيم السمانى) الستين من عمره، أمسى نومه متقطعا مثقلا بالكوابيس، اعتقد أن ريح شقته المطلة على النيل بعمارتهم القديمة، والتى لفظت فيها زوجته أنفاسها، من أسباب اضغاثه.. فذهب إلى (الفيلا) برمل الاسكندرية ليمكث بعض وقت لدى ابنه ـ (الصيدلى) صبرى.

لكنه شعر بأنه ابتعد عن بقعة الضوء وزملاء النادى ـ مؤيدى حزب الوفد (القديم) ومراقبة الاحداث عن كثب، كان لا يستطيع سوى مراقبة الأحداث منذ فتره طويله، وإن تواجده فى (الفيلا) القديمه ـ بالاسكندرية ـ والتى يملكها زوج ابنته ـ المقيم فى الخارج ويواظب على إرسال ـ مصاريفها ـ بما فيها، أجره الخفير (شلبى) من لندن، وانصراف ابنه (صبرى) لعمله بالصيدلية التى أقامها فى حى

باكوس، جعله يفكر جديا فى العودة إلى القاهرة خاصة وأن الكوابيس وحالة الضيق يدفعانه إلى العودة.. لكن صبرى رجاه أن يبقى لأمر هام.

- ما هذا الأمر الهام يا دكتور؟

- سوف أخبرك به فى حينه، لأنه لم يتبلور بعد..

- اذا لم تخبرنى به الآن، سأحجز فى ديزل بعد الظهر

- مشروع زواج

- ياساتر، اخيرا يا دكتور أخذت القرار، هل يمكن أن احاط بأسرارك الحربية تفصيلا

- ابنه الدكتور محمود الفكهانى، دكتور بجامعة الاسكندرية، رأيتها فى المعمورة، آية من الحسن والجمال.

- اسكندرانية

- أكيد..

- أخيرا، وجدت من تمنحها الخاتم السوليتير

- قل بعد ما فرغت من ديون الأجزخانه

- هذا خبر سار، سأطيره إلى شقيقتك اذا اتصلت بى

- لا ياأبى، أنتظر، حين نزورهم ونعرف شروطهم

- اعتقدت أنك قطعت شوطا..

ـ بالكاد أعرفها شكلا، حصلت على رقم تليفونها وحدثت والدتها، ثم ذهبت إليها فى المدرسة..

ـ المدرسة؟

ـ ناظره مدرسة سيدى بشر الاعدادية

ـ أم م م م.. دكتور فى الجامعة، وناظرة مدرسة، والموقف المالى يادكتور؟

ـ متوسط، لكن الفتاة فى العالى!

السيد إبراهيم السمانى كان قد «أعاد محتويات حقيبته، أجل مشاريعه فى القاهرة، وهى لا تعدو أن تكون لقاءات وجلسات فى شرفات النادى، كان قد طلب منه الطبيب أن يخفض وزنه أربعين كيلو على الأقل، بعد أن شفى من جلطة الساق، كان قد استشعر نهايته وهو على سرير المستشفى الخاص، مبلغا كبيرا من المال فقده، الفدادين العشرون بالشرقية مؤجره، دخلهم محدود وايراد ـ نصف العماره ـ لا يكفى ما ينفق عليه صيانتها وعوايد وضرائب، إلا أنه لايزال يحلم (بالدور التاريخى) يكتفى بقراءة الاهرام والوفد، تباعدت الأوقات التى يسجل فيها حديثا فى تليفزيون أو اذاعه، كفت الصحف عن نشر أخباره، منذ ابتعاده عن الانشطة الرياضية بالنادى، وعلل ذلك بفترة المرض والنقاهه..»

أرسلت إليه ابنته، عندما علمت بمرضه، أن يأتى لاستكمال علاجه فى لندن وأخبرته أن زوجها (شريكه فى العماره) يزمع استثمار أمواله فى مصر ويحتاج إلى مشورته، أرسل إليها بطمئنها على صحته ويبلغها أن صحته لا تأتى على برد الانجلين، كان فى الواقع

يعانى ضائقة ماليه، عادت وحدثته فى التيلفون، قالت: أنها تتابع اخبـاره من الصحف وقلقت أشد القلق عندما كفت ـ الصفحة الرياضية ـ عن نشر أى خبر عنه ـ لم يجد ما يقوله سوى (أجلاف يا ميرفت) واطلق ضحكته المجلجة لتصل إليها عبر الاثير، شعر أن ضحكاته كانت خاوية..

مات مرزوق ـ خادمه الخصوصى ـ ليس لديه من الخدم ـ غير أم عزيزه ـ التى ترعاه فى شقته بالقاهرة ـ يتصل بها بالتليفون فتحضر (اصبح لدى أم عزيزة تليفون) البركة فى الثورة، التى قلبت الدنيا رأسا على عقب (ترفعه وتقول ألو وووه) تمط فيها (مُحدثه نعمة) تنظف الشقة وتجهز له الطعام ، ثم تعود إلى بيتها (المِلك) وتتمنع فى تناول الهبات التى يقدمها لها .. (خيرك علينا سابق يا بيه)..

منذ أن هرب صاحب شركة توظيف الاموال وتجمدت (العشرون ألف جنيه) أنه مبلغ يمثل معظم ما يملكه من سيوله، لكنه سارع واستخدم اتصالاته وعلاقاته الخاصه، تمكن أن يحصل من (المدعى الاشتراكى) على بضائع بنصف المبلغ.. كتب فى التراث.. حملها فى مجموعة من صناديق الكرتون وأودعها أحدى الغرف بالشقة، أغلقها وما عاد يدخلها.. أصحاب المكتبات وبائعو الكتب، لم يعرضوا عليه سوى ثلاثين بالمائة من ثمنها.. رفض بيعها حانقا.. عرض الأمر على ابنه صبرى قال :

ـ معقول يا أبى.. أعرض فى الصيدلية، كتباً ومجلدات ومجلدات فى الفقه والشريع والشريعة؟!

* * *

عندما يكون بالاسكندرية، يرتاد المطاعم أو يأكل بنادى اسورتنج، خفير الفيلا العجوز (شلبى) صار مثله دون زوجة وتفرق أولاده وعندما لا يجدونيس يناديه - على مضض - ليؤنس وحدته بداخل الفيلا (الملعون) يتقاعس عن الحضور إليه بحجة الروماتيزم الذى يتشبث بساقيه - ربما لأنه لم يعد يمنحه البقشيش، أو لأن أبنه صار مهندسا ولديه (عقد) بدول الخليج ويقبض بالآلاف..!

يشعر بالسأم، يضطر أن يذهب - هو - إليه، فى حجرته - ينزل إليه فى البدروم، لم يعد (شلبى) يهم واقفا ويدور حوله ملبيا طلباته.. يستقبله فى فتور.. ويبدأ حديثه عن الغلاء والماهيه التى لا تكفى ثمن الأدويه والحقن «لولا أولادى يساعدونى ما كنت أجد ما آكله يا بيه» والمغفل النطع يضع على حائط الغرفة القذرة صورة «البكابشى» صورة قديمه وهو بملابسه العسكرية، تذكره دائما بمحاكمات الثورة واتهام عمه الباشا بالرشوة والفساد..

- يل شلبى، منذ متى وأنت تضع هذه الصورة هنا

- .. كل شئ أصبح نار يا بيه

- أهلك كانوا أسعد حالا منك وهم يعيشون فى عزبتنا، ماذا أعطاك هذا الرجل..

- .. ولدى محمد - مهندس، سافر إلى الامارات وعاد بثلاثين الف جنيه، دفعهم لنصاب من أجل شقة، اضطر أن يسافر مرة أخرى يابيه.. ليبدأ مشواره من جديد لكنه يخشى أن يستغنوا عنه لانخفاض اسعار البترول.

ـ أحدثك عن صاحب هذه الصورة، تحدثنى عن البترول.. وأبنك المهندس

ـ الصورة.. هى لابنى محمد.. ياسعادة البيه وعليها توقيع الريس بخط يده، الله يرحمه.. الفاتحة يابيه عليه وعلى أمواتنا وأموات المسلمين.

ـ حثاله

ـ .. أفندم

يغادر حجرة الخفير العجوز ـ لم يعد يسمع.. أنه أيضا ليس لديه القدرة على رفع صوته العريض، أكثر.. يبقى وحده فى ردهات الفيلا، يجوس فيها، الغرف لا تزال مكدسة بالاثاثات، ابنته ميرفت وزوجها يحضران لزياره مصر وقضاء بعض الوقت فيها، على الجدران أطارات قديمه وحديثه، صورة الوالد والعم فى ملابس التشريفه الملكية والطرابيش.. وصورة كبيرة لزوجته، تجلس وقد وضعت ساقا على ساق فى ثوب السهرة الحريرى ذى الصدر المفتوح (لكن الفتاه غاية فى الجمال)..هز رأسه الكبير، وتخفف من بعض ملابسه، ومضى إلى المطبخ ليعد لنفسه فنجان القهوة المضبوط (هل كان صبرى يبحث عن أمه، ليعيد إليها الخاتم السوليتير) عندما عاد أخذ يرمق صورة زوجته ـ بعدها لم يتزوج أو يعشق، كان عفوفا ـ ثم غمغم (مستحيل أن تعثر على فتاة لها ذلك الجمال العثمانلى.. يادكتور..).. والدها دكتور بالجامعة.. وأمها ناظرة مدرسة اعدادية.. طظ..) لكن (دكتور الجامعة) عادت تدوى فى رأسه.. أنه بصعوبه شديده وبضعف سنوات الدراسة وبالوسائط حصل على ليسانس الحقوق.. تأهل

للسير فى سكة الوزراء والحكام، عندما قامت حركة الجيش.. فامتلأت السكة بأفنديه الطبقة الوسطى - المتطلعين - دفعوه بالمناكب - عديمو الذوق - فأسقطوه على التلتوار.. حاول أن يكون - رجل أعمال - ولكنه لم يفلح.. نأى بنفسه بعيدا - يتشمس فى حدائق النادى - ويشارك فى الاعمال الادارية لبعض اللعبات - أو يسافر إلى العزبة وظهره مسنود إلى (العائلة).. إلا أنه فى (أجندة العلاقات) كان دائما يقوم بالتعديلات فيها، حتى اختفت معظم الاسماء (الاصلية) وأمتلأت بأسماء جديدة، ليس لهم جذور - وكان يأنف أن يقيم (علاقات) معهم، فألقى (بالاجندة) بعيدا - ساخطا على الزمن، وأخذ يعزف لحن (صولو) لا يشجى أحد أسواه..!

فى مرحلة الانفتاح، داعبه الامل وتفتحت شهيته، توقع أن يلعب الدور الذى وأدته (الحركة) عاد وبحث عن (الاجندة).. قلب صفحاتها من جديد، فوجد حتى الذين لم يكن يرضيه (الاتصال) بهم.. تنحوا بعيدا.. وبهم رمق من الاصاله وبرزت على السطح، فقاقيع، تحير كيف استحوذوا على ثرواتهم الضخمة فى هذا الوقت القصير، لهم لغتهم الخاصة التي لا يتقنها حاول أن يلم بمصطلحاتها كف مريم (خمسة جنيهات) الزهوب (جنيه) الاستك (الف جنيه) البريزه (عشرة جنيه) الارنب (مليون جنيه).. الخنزيره، الحلوفه، الشبح، الألبنده، الكومندا، نص سوى، الحموم، حبه فوق، دوخينى ياليمونه، الانفاس البيور (القاموس طويل) تعثر فى فهم لغتهم، تاه فى أساليبهم الملتوية.... فوقف على الرصيف مع المتفرجين (ينتظر الفرج).. وعندما اذدحمت اجهزة الاعلام بالاعلانات عن شركات توظيف الاموال - لم يندفع، اخذ يدرس كل شئ على مهل رأى الوزراء السابقين يعملون فى هذه

الشركات موظفين، ورأى رئيس الوزراء يفتتح ويبارك مشروعاتهم ـ ورأى زفة من الشيوخ والعلماء تبارك هذه التجارة (الاسلامية) اثنان بالمائة شهريا.. أربعة وعشرون بالمائة سنويا.. فى أربعة أعوام تتضاعف أمواله يالها من صفقة رابحة.. أن هذا أفضل عشرات المرات من التجاره والصناعة والزراعة وأى مشروع آخر يمكن أن يخطر له على بال، دفع بمعظم مدخراته السائلة إلى الشركة الاسلامية، أهدوه مصحفا شريفا وسجادة للصلاة، سر بالدفعة الاولى من الارباح، فكر أن يبيع أرضه للمستأجرين قد يحصلون على نصف مساحتها مجانا ولكنه سيعوض ذلك خلال أربعة أعوام على أكثر تقدير، وأن يودع ثمنها بالكامل لديهم، وانشغل فتره بحساب الارباح، حمد الله، أنه لم يفعل ذلك فى عجاله، فالوقت الذى استغرقه فى التفكير والمباحثات مع الفلاحين لتخفيض نسبة خلو الرجل التى يطلوبنها، انقذه ذلك من الضياع، وحمد الله أن الفلاحين ـ الخبثاء ـ عطلوا بيع أرضه ـ فقد صدر قانون العلاقة بين المالك والمستأجر للأرض الزراعية، وضاعف له قيمة الايجار من سبعة أمثال الضريبة إلي اثنين وعشرين مثلا.. لقد طفا على السطح مرة أخرى، ويعد فترة محدودة يسترد أرضه دون دفع تعويضات تذكر، ويستطيع أن يتصرف فيها كيفما يشاء (جرى القرش بين أيديهم ـ تحت حماية القانون والقرارات ـ واتيح لهم أن يعلموا أولادهم فى الجامعات، فاحتلوا الوظائف والمناصب المرموقة فى المجتمع ثم تسربوا إلى دول ـ البترول ـ واصبحوا من أصحاب الملايين ـ دنيا..).. ويأمل بشده أن ينتهى نظر قانون ايجارات المساكن لتعود إليه عمارته (نصف عمارته فى الواقع) سوف يشرع ويزيلها.. ربما باع الارض وحصل على مليونى جنيه، فهى تطل على النيل فى موقع قريب من نصف البلد ـ

بعض الشقق إيجارها نفس القدر المخصص لخدمات البواب ـ وربما شارك زوج ابنته فى المشاريع لاستثمارية ـ أحلام يتلذذ باجتررراها.. يتعجل هبوطها فى مطاره.. وأن لا يطول تحليقها فوق رأسه، كان يرشف فنجان القهوه وهو يحلم بالأيام القادمة ـ حتى أن الفنجان نضب ما فيه وهو لا يزال يذهب به إلى شفتيه ثم يعود إلى وضعه فى الطبق، شاخصا ببصره إلى بعيد ـ تناسى نصائح الطبيب وأشعل سيجارة.. بضع أنفاس منه لن تضر كثيرا.. وعندما نفث دخانه في دوائر، دار فى ذهنه خاطر..

«هل تملك عروس صبرى، ثروه مناسبة، لابد من التكافؤ الاجتماعى، يكفى أن د. صبرى.. قد هبط إلى مستواهم، لابد وأن يستعين (بخبير) ليأتى له بأصل وفصل هذه العائلة ـ مهما كان فهو والده.. ومسئول عن تصرفاته.. وأخذ يقدح الذهن لعله يتذكر أحدا من معارفه فى (المباحث العامة) بالاسكندرية، ليطلب منه هذه الخدمة الخصوصية ..»

«الطالع»

.. العائلة فى الاصل من الصعيد، عائلة تضخمت بالرجال فتوزع إرث الاجداد وأخذ يتضاءل حتى انتهى إلى ـ عبد القادر ـ فدان ونصف وواحد وخمسون نخله ورواقان بالمنزل القديم فى قلب (النجع).. زرع نصيبه فواكه.. وفى الجنينة نشأ أبيه (علىّ) وأولاده الآخرون ـ بلغ (على) مرحلة الشباب وضاقت بالاسرة (االاحوال) على عبد القادر الفكهانىْ ـ فك الخط وحفظ القرآن واستمع إلى شاعر الربابة وهاجر مع الهلالية من قلب جزيرة العرب إلى المغرب، فسار

فى ركاب أبوزيد الهلالى، طاله غبار المعارك مع الزناتى خليفة فأحب ـ عزيزة مع يونس ـ وقال فيها ـ الأغانى ـ أهدته النجوم الكلمات، فأخذ يكتب الاشعار والمواويل، ينوح بها لعلها تخفف من لواعج فواده، رأى أن من يطلب الموت تكتب له الحياة، لمست شغاف قلبه قصص عنتره وسيف بن ذى يزن، نقش على ظهر يده، سبعا مسكا بسيفه، واقسم مائة يمين أن لا يبقى فى النجع ولا هو شغال فى (البستان) الذى لم يعد ايراده يكفى مصاريف العائلة، كان بابور السكة الحديد يمر فى مواقيت محددة بالقرب من النجع، يأخذه معه كل يوم إلى دنيا الاحلام والسحر، وعندما اشتدت الحكومة فى طلب (السخرة) لبناء الجسور والقناطر وأخذوا يقبضون على الشباب الفقير الذى ليس له ظهر.. يدفعهم إلى العمل الشاق بأجر زهيد، شجعه أبوه على الرحيل ـ بلاد الله واسعه، رب هنا رب هناك ـ وقف في محطه السكة الحديد وانتظر قطار الفجر.. حائرا.. إلى أين يتجه.. جنوبا أم شمالا وجاء قطار (مصر) فركبه ـ هكذا شاءت الاقدار ـ وهو بالكاد يمتلك ثلاثة ريالات بعد أن دفع أجر القطار، هبط فى القاهرة ومشى فى شوارعها مسلوب الارادة.. ذاهلا ليس له هدف محدد، ولا يعرف أحداً فى آلاف (النجوع) المتراصة بجانب بعضها وفوق بعض.. قادته الاضواء (كالفراشات) إلى حيث الضوء الباهر.. اقترب من النار حتى كاد ـ يحترق.. ويتلاشى..!

* * *

«الافتتاح العظيم للموسم التمثيلى، تياترو ماجستيك يقدم اليوم ولأول مرة باستعداد عظيم.. الرواية الجديدة ـ ابن فرعون ـ اوبرا كوميك فرعونية ذات مقدمة مبهرة وثلاث فصول عظيمة.. تأليف زكى

ابراهيم وضع ازجالها بديع خيرى (حفظ الاسم جيدا) ـ وقام بتلحينها بالنغم الشرقى الشيخ زكريا أحمد،يقوم بأهم الادوار فيها بربرى مصرى الوحيد ـ على افندى الكسار ـ ويطرب الحضور بصوته الرخيم الفخيم الشيخ حامد مرسى وتقوم بالدور الأول الممثلة الرشيقة ـ رتيبة رشدى»

«تشبهوا بالأمراء حفلة طرب فوق العادة بدار التمثيل العربى بالأزبكية يحييها مطرب الأمراء والعظماء الشاب محمد عبد الوهاب، على تخت وآلات طرب خيرة رجال الفن والموسيقى، متعهد الحفل (فيتاسيون) وصديقه أحمد».

«صالة السيد، بديعه مصابنى أكبر وأرقى صالة للغناء والرقص بالقاهرة تفتح أبوابها للجمهور الراقى من عشاق الطرب والرقص الفنى البديع، حيث تغنى وترقص الفنانة الرشيقة الجميلة، بديعة مصابنى، وتغنى بين الفصول الأنسة مارى وترقص فى البروجرام الراقصة شفيقة والراقصة ليلى والمفاجأة الكبرى.. تغنى معنا السيدة فتحية أحمد»

«سينما أمبير.بروجرام هذا الاسبوع، جوزيف يودع الحياة ـ فيلم هزلى من فصل واحد.. قريبا فيلم هزلى من فصلين ولمدة أطول عن مأساة من حوادث الغرب الأقصى»

«كازينو الهميرا لصاحبته فنانه الرقص الشرقى السيدة (نعيمه المصرية).. الفرجة بالمشروب ـ أسعار موحده بحد أدنى عشرة قروش صاغ ..»

«سينما تريومف (عماد الدين) بروجرام جديد من الأفلام الهزلية والمغامرات الاوربية..»

حام هنا وهناك،، تعبت قدماه أمام تياتروا ماجستيك.. أكل من الباعه الجائلين، وعندما جلس فى المقهى القريب ليشرب الشاى ويريح قدميه.. استمع إلى آخر الانباء، الجميع يتحدثون وبصوت عال، عن الفن والسياسة والإشاعات.. وهو منبهر.. تكشف له أنه حط بالفعل على دنياه الجديده، التى كان يحلم بها.. ولم يكن يستطيع تذكر أو تفسير تلك الأحلام.. بعد منتصف الليل تخلصت المقهى من زبائنها وجد الجرسون يحوم حوله ويجمع المقاعد، اضطر أن يقوم مرغما - لأنه لا يعرف إلى أين سيذهب - ماكاد يمشى بضع خطوات حتى سمع الجرسون يناديه.. عاد.. فناوله لفافه (لمؤخذه يا أخ.. نسيت حاجاتك) ودفعها فى صدره.. أخذها منه، فض اللفافه كانت تحتوى على مجلة عنوانها (المسرح) وبداخلها كتاب ودفتر - كتبت فيه أشياء بالقلم الكوبيا.. باقى صفحات الدفتر بيضاء ، التفت ناحية الجرسون.. كان قد أغلق أبواب المقهى.. ربما أغلقها على نفسه وأطفأ الانوار».

فى حديقة الازبكية.. مكث حتى الفجر، ناداه مسجد فتوجه إليه، اغتسل وصلى، طلع النهار.. فأخذ يقرأ فى المجلة، والكتاب.. والدفتر.

الكتاب.. مجموعة من المنلوجات الوطنية لناظمها الفنان (حسن فائق).

والدفتر.. عليه اسم (حسن فائق).. فنان بمسرح رمسيس.

سأل أحد المارة: أين مسرح رمسيس؟

تعجب منه الرجل وقال:

ـ أوه.. لازال الوقت مبكراً يا أخينا، مسرح رمسيس يفتح أبوابه في الليل

ورمقه متأسيا واستطرد..

ـ ماذا؟ هل بعت القطن وهبطت على مصر، أنصحك أن تسهر عند كشكش بيه، يمكن الريحانى يعطيك مواعظ تنفعك قبل ما الرقصات ما يلهفوا منك (الجزلان)..

وضحك ومشى.

لم يكن قد أنفق سوى ثلاثة قروش من الريالات الثلاثة.. يستطيع أن يعيش خمسة عشر يوما، ولكن أين ينام.. هل يمكن أن يعمل؟ وماذا يعمل؟ أنفق نهاره مع المجلة، قرأها من الغلاف إلى الغلاف، هو عالمه المسحور الذى انفتح عليه، وعاد يقرأها من جديد.. صلى فى السيدة زينب، نام فى المسجد حتى صلاة المغرب، ثم خرج، أكل وعاد يصلى العشاء، وكان آخر من خرج من المسجد، حاملاً تحت أبطه المجلة والكتاب والدفتر.. عندما ألقى السلام.. أجابه الشيخ عند الباب.. و«عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أستاذ» أعتقد أنه فى ملابسه البلدية ودفاتره، أحد المجاورين من دارسى الأزهر.

«أول فيلم مصرى يظهر على لوحة السينما رواية (ليلى) يعرض للمرة الأولى فى سينما المتروبول بطولة وإنتاج السيدة عزيزة أمير ـ أول مصرية اشتغلت فى السينما (لايفوتك مشاهدة الفيلم ياعلى) ـ إخراج إسطفان روستى..».

كان طول اليوم يحدق فى الصور التى إزدانت بها المجلة، صور الممثلات، كانت وجوههن واضحة، جميعهن ينظرن فى عينيه، حتى بات ـ عندما ينظر فى عيونهن ـ يضطرب.. بديعة مصابنى وقد ربطت رأسها بعمامة عثمانلى وفترت شفيتها عن ابتسامة ساحرة.. فتحية أحمد المطربة وقد عصبت رأسها وأحاط الفراء برقبتها تاركاً مساحة لإظهار جدائل العقد اللولى، علية فوزى تنظر إلى المجهول.. أم كلثوم.. وقف طويلاً أمام هذا الوجه يحاول أن يتذكر أين رآه من قبل، منيرة المهدية، شريط على جبهتها وفى شفتيها الرقيقتين حزم مدير المديرية.. لا تنظر فى عينيه.. رتيبة رشدى، تذكر أنه رأى اسمها على مسرح الكسار ـ هاهى بشعرها القصير ووجهها المستدير، لا يتصور إلا أنها هانم زوجة موظف كبير..»

عزيزة أمير ـ ها هى ذى بطلة فيلم ليلى ـ عقصت شعرها وقد جمعته فى منديل ملون وأحاطت رقبتها بفراء وياقة بالطو عالية.. فمها كالخاتم الصغير.. هل تستطيع أن تراها، يا على فى السينما ـ دولت أبيض، روزاليوسف، فاطمة رشدى.. أثناء تطلعه إلى وجوه الممثلين والممثلات، وضع قدمه فى قارب كان يتهادى به من شط إلى شط، يرى على مدى البصر.. أنه يعمل بينهم، هل يصل قاربه ذو المجدافين إلى شاطىء الفن، أنهم هنا يضعونهم فوق الرءوس، أخبارهم تتناقل ويكتب عنهم بجانب الحكام والأمراء..»

وعندما أخذ يقرأ فى المنولوجات الوطنية بالدفتر ـ تحمس ـ كأنه يقدم شهاداته؛ وجد أنه يستطيع أن يقول ويكتب أشياء أفضل منها.. اهتاجت خواطره وتزاحمت بكثير من المعانى، ابتاع قلم كوبيا ثم أخذ

يكتب ويكتب فى الصفحات الخالية من الدفتر، فى المساء ذهب إلى (حسن أفندى فائق) ليرد له (لفافته) ـ سأل عنه السيدة التى تصرف البطاقات بمدخل مسرح رمسيس، قالت له: لماذا تريده؟ قال بلا تردد..

ـ قريبه، جئت إليه بشىء خاص، يلح فى طلبه.

ـ شىء ، ماذا يكون هذا الشىء.

ـ شهادة ميلاد..

ـ حسنا يمكن أن تذهب إليه من باب الممثلين في الخلف..

منعه البواب الأول من الاقتراب من الباب ـ وعندما أحاطه بضرورة لقائه، جعله ينتظر فى حراسة البواب الآخر، ودخل يطلبه له (قل له قريبك جاء ومعه شهادة ميلاد) اختفى أحد الرجلين بداخل النفق.. والآخر كان ينظر إليه باستخفاف ـ كان على عبدالقادر طويلاً ووافى البدن وبيده أوراق لا يمسك بها إلا الأفندية، لولا هذا ما صدق أنه قريب الفنان حسن فائق ـ الذى كان يلقى المنولوجات فى استراحات الفصول ليتيح (للعمال) تبديل مناظر رواية ملك (الحديد)، جاء حسن فائق تسبقه ضجة يكلم نفسه «قريبى، قريبى أنا .. قريبى من، يابواب، شهادة ميلاد.. أنا، غريبة والله..» حتى وقف أمامه مندهشاً..

ـ أنت .. أنت مين؟

ـ حضرتك حسن أفندى فائق

ـ أيوه يا أبو البل، حسن أفندى فائق بشحمه ولحمه (ولمح الأوراق التى يحتضنها)

ـ الحاجات دى تخصك

تناولها منه.. قلبها.. إتسعت عيناه وأتسع فمه

ـ تمام.. تمام هي هي المجله، الكتاب، والكراسه، أنا كنت زعلان قوى على الكراسه فيها آخر إنتاجى الفكرى، أشكرك يا أخينا.. فعلا شهاده ميلادى، أى ريح طيبه حدفت جنابك، إمبارح كانت راحه المسرح، شربت شاى فى القهوه، جاء واحد صاحبى، خدنى من ذراعى، قمت معاه على طول (نظر إلى البوابين) الدنيا لازال فيها خير يا جماعه، والمنولوجات الوطنية عملت عمايلها، إسمع أنا عندى وصله واحده بعد نصف ساعه، أنا يسعدنى إنى أتشرف بمعرفتك يا أخى، باين من اللهجه بتاعتك أنك صعيدى، أين تقيم؟ شكلك ليس غريباً علىّ»

ـ جئت من (سوهاج) البارح.. لأول مرة..

ـ معقوله.. يا سلام.. الجماعة الصعايده دول ناس شرفا، تمام (أطلق ضحكته الطويله المميزه) ـ أشكرك على كل حال، خذ، نفسى أهديك الكتاب.. وكمان المجله، لكن الدفتر مستحيل، لأن المنولوجات اللى فيه طازه ـ وأخذ يفر أوراق الدفتر، ضغط بأصابعه على طرفه فتوالت الصفحات.. ثم عاد.. كأنه لحظ شيئاً..

وأخذ يبحث عن صفحات معينه (الله هذا الكلام ليس لى)

ـ لمؤاخذه يا حسن أفندى.. أنا كتبت بعض المواويل و..

عـاد (حسن) يقـرأ.. ثم يقلب الصـفـحـات ويقـرأ.. زم شـفـتيـه، هز راسه إعجاباً

- أيه دا.. دا شعر.. أنت شاعر.. خطك جميل وتجيد القواعد.. كلام حلو.. بقولك أيه، تعرف القـهوه اللى هناك دى، أقعد فيـها، أشرب أى مـشـاريب، إشـرب بشلن مـشـاريب، ولا يهـمك، أنا اللـى ها حاسب عليـها، سـاعه زمن وأكون عندك.. أتسلى فى المنولوجـات الوطنيه.. دا أنت فنان يا راجل.. فنان صـحيح..»

التـقيا على المقهى، تحدثا طويلا، دعاه حسن أفندى إلى البنسيون الذى ينزل فـيه ووعده، بـأن يلحقـه بـعمل - تقـرأ وتكتب ولك هيـئـه ذلك سيسهل علىّ الأمـور - قال له (علـى عبد القـادر) أن ظروفه لا تسـمح له بدفع أجـره (المبيت) وأنه لا يملك سـوى أقل من ثلاثه ريالات لا تكفى طعامـه بضـعـه أيام - طمـأنه بأنه سـوف يلحقـه كمبـارس - بشكل مؤقت بإحدى الفرق (وكان ينسي أسمه ويعود يسـأله)

- قلت لى أسمك أيه يا أخينا؟

- على عبد القادر الفكهانى

- يبقـى خلاص، على أفندى الكسـار، أيوه، الفرقـه تعرض مسـرحيه فرعـونيه وجسـمك مـا شـاء الله ينفـع فـرعونى تمام، مـا هـو أنت فرعونى أكيد.. موش جاى من طيبه عدل يا.. إسمك أيه.. قلت لى أسم حـضـرتك أيه.. أيوه إفـتكرت.. على الفكهـانى.. لا.. خليك على عـبد القـادر.. أيه لزوم (الفكهـانى).. طالما سـتشـتغل بالفن (وضـحك)

... ...

اشتغل كمبارس، ثم حصل على أدوار صغيره لاجادته القراءه والكتابه، الطريق فتح له في أعمال أخرى - معظم الممثلين والممثلات كانوا لا يقرأون ولا يكتبون.. أدمن قراءه المجلات والصحف.. والكتب - وكانت الفرق تشكل وتحل.. والممثلون يعانون من البطاله فترات طويله على مدار العام - كان (على) يكتب أخباراً عن الفرق والممثلين وما يدور بينهم - كما طلب منه رئيس تحرير وصاحب مجله (المسرح) الأستاذ محمد عبد المجيد»، كما أنه قد استفاد منه في تصحيح المقالات لغوياً - وعندما ظهرت أهميته - قرر له ثلاثة جنيهات شهرياً على أن يتفرغ للعمل في المجله، أستقرت أوضاعه بعض الشيء - كان قد استأجر مسكناً دائماً وارتبط بممثلة ناشئة - جاءت من كفر الشيخ هارية من صفقه زواج حاول أن يعقدها عمها مع كهل.. كان لها ذلك الجمال الهادىء، خشى أن تتوه في دروب المهنه، أخذ يحذرها من الذئاب.. فقالت له دبرني ماذا أفعل؟ فكر قليلا ثم قال - لحمايتك سأعلن أني قد خطبتك - فقالت على الفور: ولماذا لحمايتي فقط، أنا لا أجيد هذا العمل وسوف ينتهي بي الأمر إلى راقصه في الملهى وهذا مالا أرغب فيه.. اذا كنت بالفعل تشعر نحوى بعاطفه نبيله.. (قاطعها) هي والله رغبتي الدفينه.لكن.. قالت رزقي ورزقك على الله.. من الغد سأبحث عن عمل في غير الفن.. (قال) وأنا من الغد سأبحث لك عن هذا العمل.. هل تقبلين عملا في محل تجارى..؟

* *

أستخدم علاقات صاحب المجله وأوجد لها عملا في محلات (هانو) تدربت على فن البيع، وواصل هو التدريس لها، حتى أجادت القراءة والكتابه..»

* *

يوم زواجهما توفى صاحب المجله فى رحلته إلى الشام.. وأغلقت المجله أبوابها، حاول بعض المحررين استمرار - صدور المجله - لضمان وظائفهم وكان (على عبد القدر) يبذل جهدا خارقا فى التحرير، ومتابعه الأخبار وأعمال الطباعة والمراجعة.. لفت إليه الأنظار.. وأن كانت المجله قد فشلت فى الإستمرار، إلا أنه وجد عرضا من صاحب مجله (الهلال) يعرض عليه العمل فى مجلة (الفكاهة) وهى مجله أدبية ثقافية فى ثوب فكاهى ساخر، فأثبت جدراته فى العمل - من الباطن - فقد تأكد لديه أنه لن يتقدم إلى الأمام - ولن يكون له (اسمه) ما دام ليس لديه مؤهلٌ مناسب - لم يكن الطريق ممهدا أمام من فاتهم قطار التعليم.. ولم يكن ميسراً (للكبار) الحصول على مؤهل دراسى، فاتجه إلى دراسه اللغات.. قطع شوطا طويلا حتى أجاد الترجمه - وحصل على شهادات شخصيه بقدرته على الترجمه (بتصرف) فازداد دخله واستقرت أحواله وقد تفرغت زوجته لشئون بيتها بعد أن أنجبت (محمود).. وفائزه، قبيل الحرب العالمية الثانيه.. وعندما ذاع صيته، طلبته جريده (الأهرام) للعمل بها بمرتب مغر.. فأنتقل مع أسرته إلى مكتبها بالثغر.. ثم قامت الحرب.. بعدها تركزت الصحف فى القاهره.. فلم ينتقل معها بقى فى الإسكندرية فتره، أفتتح دارا للنشر والترجمه فاجهزت على مدخراته.. وعندما حاول أن يعمل مره أخرى بالصحافة.. كان الكساد الذى حل بنهايه الحرب قد اجتاح العاصمه..وانتقل الأدب والفكر من مرحله الترجمه إلى مرحلة التأليف.. بينما كان عدد المترجمين بانضمام أفواج من والشوام والأجانب قد ازداد.. فلم تأت رحلاته وإقامته بعيدا عن بيته بما يكفيه..»

وظهرت قيمة المؤهلات الدراسيه التى لم يحصل عليها.. لذلك قرر البحث عن عمل يرتزق منه، واتّخذ القرار (المجنون) الذى كان فيه شفاء لأحواله وأحوال أسرته التى بدأت تعانى شظف العيش..

لقد افتتح دكان بقال فى منطقه الحضره الشعبيه، راجت تجارته وكأنه خلق لهذا العمل ونسى الناس (على عبد القادر) الصحفى المترجم وأمسى عم (على البقال).. إستطاع عم (على) أن ينفق على (محمود) حتى أتم دراسته الجامعيه ثم واصل تعليمه حتى حصوله على الدكتوراه والتحاقة بالعمل بجامعه الأسكندريه، كما أنه جهز (فائزه) للزواج من ابن تاجر فاكهه وخضروات بالوكاله، له مكانته بين معلمين الوكاله أصحاب السطوه والنفوذ على صغار التجار..»

* *

عندما أخطره ابنه محمود.. أن (عزه) جاءها خطيب، دكتور صيدلى سخط فى وجهه..

- ماذا يا محمود، تزوج عزة قبل رفقه، هل تريدون أن تطق البنت من جنبها هذه ليست مشورتك يا دكتور، هذه مشورة فكريه التى تمسك اللجام..

تحمل محمود ثورة والده، حتى هدأ من ثورته وتخلص من غضبه فوعده بالحضور لرؤيه العريس.. (وكل شىء قسمه ونصيب..)

لكن على عبد القادر فى قراره نفسه كان لا يزال غاضبا وحزينا.. لزواج (العيلّه) عزة قبل أختها (العاقله) ست الستات» الدنيا حظوظ.. (جود لك فور رفقه..)

قال ذلك بصوت مسموع، وبلهجه يكسوها نطق الجنوب..

٥- خطوه نحو القيد

إجتاحت (البيت) حاله من النشاط الطارئ»، جعلت دكتور محمود.. يتذكر حالة الاستعدادات التى تجتاح المواقع الحكومية، عندما يتناهى لهم أن مسئولا كبيرا على وشك زيارتهم، حتى أنه أخذ يتندر على (فكريه) التى تناست مرضها ونشطت بصوره مذهله فجأة، وأخذت تتحرك هنا وهناك بالمسكن، كل شىء لابد وأن ينظم من جديد.. مفارش على المناضد، سجاجيد الصالون.. ضربوها بالمنافض حتى ضج الجيران بالشكوى من الإزعاج والتراب الذى ملأ بيوتهم.. تصرخ فكريه فى البنتين بأن تعملا همهة وتمسحا كل شىء وتملآ الفازات بالورد الصناعى وتنزلا النجف وتغسلاه، كذلك المطبخ - تم اختفاء الكراكيب فى دواليبه وبدا لامعا نظيفا.. كانت كل هذا الأستعدادات على قدم وساق - من أجل إستقبال.. (العريس)، رغم وجود ثلاثة من المفتشين ينتظرون فكرية الناظرة بالمدرسه.. والتليفون لم يكف عن الرنين يطلبون ضروره حضورها بالمدرسة - أو إرسال مفاتيح الدولايب والسجلات - فقد جمعت كل شىء بيدها فى المدرسة - إلا

أنها صاحت في محدثها بغضب «قولوا لهم أني مريضه.. مريضه» ثم أغلقت التليفون بعصبيه وقالت:

- كل شيء على دماغي إن كان في المدرسه أو البيت، هل أقطع نفسي، كل واحد حاطط يده في الماء الباردة - (ثم إستدارت إلى محمود فسارع وخرج إلى البلكون، يدخن سيجاره، ويصم أذنيه عن شكواها، لحقت به).. أنت يا دكتور.. على قلبك مراوح، قاعد هنا وتاركني (لايصه)..

- ماذا أفعل يا فكرية، أنت عاملة من الحبة قبة

- البيت كان منظره يقرف، هل تريد، أن يمسك الناس سيرتنا

- طيب، كل شيء أصبح تمام - لماذا أنت عصبية، إهدئي

- إنزل حالا، أشتر لنا فاكهه.. ودستتين جاتوه، الناس الذين سيأتون ماذا نقدم لهم، هل تريد أن يأكل الناس وجهنا (كيف يأكلون الوجوه.) وأبتسم «لقد رأى رفقة قد قامت بالجانب الأعظم من العمل في تنظيم وتنظيف الشقه.. وفكريه تلاحقها بالملاحظات الرئاسيه الفارغة البنت تعمل في صمت.. بينما (عزة) اختفت تماما .. ذهبت إلى الخياطه، لإحضار فستانها الجديد الذي أصرت أمها أن ترتديه عند دخولها على العريس، وبين يديها صينية الشاي..

- على مهل يا فكريه، رفقه هكذا تتعقد وتضيع منا..!

- رفقه فرحه لأختها، أطلع منها أنت وتفضل شوف شغلك..

«كانت تعنى سرعة أحضان الطلبات، قبل أن يطلب عليهم العريس ومن معه».

قال: لاتنس أنها ابنتنا الكبيرة، وما يحدث الآن لها كأنه الرمح يتوجه إلى قلبها مباشرة.

* * *

وقفت سيارة د. صبرى ، أمام باب العمارة، كانت السيارة تحت المراقبة، عندما خرج بصعوبه من أمام عجلة القيادة واستدار حول السياره الفلوكس إلى الناحية الأخرى ليفتح بابها لوالده - مضى وقت ليس بالقصير حتى تمكن والده من جمع نفسه والخروج منها، ثم تناول من داخلها، علبة الشيكولاته الكبيره بغلافها الملون وشريطها الحرير المتقاطع، رفعا وجهيهما إلى واجهة العمارة وكأنهما يتطلعان إلى المسافة التى يجب عليهما صعودها إلى شقة العروس (بالعمارة مصعد يبدأ من الدور الثالث، أمام شقة الدكتور محمود..)

كانت فكريه تلقى بآخر التعليمات بشأن الملابس التى يجب أن يرتديها كل من أفراد الأسرة، كانت قد فرضت على الدكتور محمود البدله الكحلى وانتقت له رباط عنق نبيتى وجعلته يعيد ربطه مره أخرى طبقا للموضه السائدة، عقدة رفيعة تندس بين ياقتى القميص الطويلتين.. وأبدت إحتجاجاً هيناً - ولكنه مؤثر - على دعوته لصديقه (د. منير) الذى جاء فى ملابسه (الهيبز) بنطلون وجاكت من الجينز وتحتهما قميص مزركش وفى قدمه (بالس) كان من رأيها الأكتفاء بدعوه أخيها الحاج مصطفى.. وهى أيضاً تتوجس من حضور والده (عم على البقال)، رجته أن ينصحه - بأن يمسك لسانه، فرجاها أن

تنصح أخاها، أن لا يقلب القعدة إلى مواعظ، فيكتشف الناس جهله بالدين و الدنيا، قالت:

- الحاج مصطفى رجل إذا تكلم سيتكلم فى أحاديث الرسول ومكارم الأخلاق ولكن إذا تكلم والدك.. لن يتكلم إلا عن المشخصاتيه الذى يفخر بمعرفتهم ويحكى تاريخهم (عمال على بطال).

* *

ازدحم الصالون.. كان د. منير يجلس بجانب د. محمود على نفس الأريكة، وعم على البقال يجلس فى الصدر وبجانبه جلس الحاج مصطفى كل منهما على مقعد منفصل.. ثم جلس العريس ووالده على الأريكه التى تواجه والد العريس، تأخرت فكريه فى الدخول، كانت تقنع جمال بالدخول لتفخر به وهو يسلم على الضيوف، لكنه آثر أن يشاهد - أكبر جزء من البرنامج الرياضى. كانت كعادتها معه تقنعه برفق أن يغلق التليفزيون ويهندم ملابسه ويتقدمها إلى الصالون، ولا يبدو عليها الغضب وإن بدا الإصرار.. ..

تبادل الجميع كلمات الترحيب.. التى فرغوا منها سريعا ليحل محلها الصمت، أتاح ذلك لمحمود فرصه للتأمل..

«د. منير كأنه يمر بحاله نقاهة من مرض طويل كان ساهما، صامتا، العريس ووالده ملأ الأريكه التى صنعت خصيصاً لاستيعاب أربعه أشخاص عاديين، أو ثلاثة على راحتهم.. أين ستجلس عزه إذا دخلت، المفترض طبقاً للعادات الحديثه - أن تجلس بجانب العريس،

فخذا العريس تلتصقان بالمسند من جهة وبفخذ والده من الجهة الأخرى.. لابد وأن يقوم إحدهما.. ليس العريس بالطبع.. فالأريك تتصدر الصالون - التفت إلى المقعد الخالى.. وأين ستجلس أم العروس.. بالقطع (الست الناظره) رتبت كل شىء، وكان لابد أن تكتب بالطباشيره أرقام الجالسين على المقاعد والأرائك - حاول أن يشغل محمود نفسه فى شىء آخر، حتى لا يضحك بلا مناسبه، العريس ووالده يزيدان عن ربع الطن، ربما ثلث الطن وبإضافه أوزان الباقين.. وجد أن الحموله ثقيله على سمك السقف، إنه مع البلاط يتراوح من عشرين سنتيمتراً إلى خمسه عشر.. العماره قديمه - (أحمد الله، وإلا كانت...)

وتصور أن السقف يتشقق ثم يسقط العريس ووالده على (أم نوال) التى تسكن تحتهما، سيسقطان فى حجرة أولادها على مجموعه الأسرة الصغيرة المتراصة للأولاد الأربعة، حاول أن يتذكر شيئاً حزينا حتى لا ينفجر ضاحكا، كما أنه تجنب النظر فى عينى (د. منير) - ربما كان يفكر نفس الأفكار.. تناول سلسله المفاتيح، لن يدخن أمام والده، الحاج مصطفى.. سيجعل منها حدوته.. ولكنه أصبح هو الآخر والدا لبنات على وشك الزواج.. هل يقوم ويحيى الجالسين بالمرور عليهم بعلبه سجائره.. هكذا يفعل أولاد البلد فى أفراحهم وأحزانهم.. عند الحلاق فى إنتظار دوره.. توضع المجلات والصحف، هل إذا كان قد وضع بعض الصحف والمجلات على المنضده كان سيمسك كل منهم بواحده ويدفن فيها رأسه، هذا أفيد من الصمت، جال ببصره على الجدران.. الصالون ليس به من (المناظر) إلا هذا المنظر الطبيعى - اختارته فكرية وأوصت بصنع إطار ذهبى له، إنه

يصور جبال الجليد فى شمال أوربا - تساءل أين صوره الفنان - حسن فائق - التى كان قد أهداها لـ (عم على) بعد وفاه هذا الفنان العظيم، لابد وأن السيده فكريه قد تخلصت منها، كيف لم يلحظ غيابها إلا اليوم، أقنع نفسه أن إطارها الأسود اللامع لم يكن يتفق مع قماش الصالون البيج - والد العريس لم يخلع النظارة السوداء، لا ليست نظارة طبية، لابد وأنه يخفى بها امتعاضه، أو التجاعيد والأكياس التى تتدلى تحت عينيه، لكنها واضحة، عاد يعبث بسلسة المفاتيح فى قلق.. أيضا العريس يضع على وجهه نظاره، تبدو غامقة نوعا، لكنها من الزجاج (الفاميه) طبيه.. تذكر بعض القفشات حول (السّمان) لو أنه كان وحده مع صديقه منير.... لالقاها على مسامعه وإستغرقا فى الضحك سويا.. (أظنك سمعت بعض الإشاعات التى تدور حول زواجى..

- أجل سمعت

- ومارأيك

- إن كانت هذه الإشاعات صحيحه فإنى أهنئك وإن كانت غير صحيحه فإنى أهنىء العروس)

صعدت شبه إبتسامه إلى شفتيه، بل إنه لمح نفس الإبتسامه على شفتى منير، هل انتقلت إليه، بالتلباثى، يبدو أن العريس صبرى أبن عز - كان يرضع فته ولحمه ضانى، لكن رغم أن كل شىء فيه كبير ومستدير، إلا أن شكله العام مقبول، ملابسه شيك - لديه سيارة - والده يبدو كلاسيك، البدلة التى يرتديها ذات الخطوط الطويله الواضحه. بالقطع صوف إنجليزى حر، والحذاء إيطالى والقميص

الحريرى أكمامه بمشابك ذهبية، فوقه الصديرى، وجوربه حريرى خفيف، والساعه المستديره الكبيره فى رسغه، كل شىء عليهما ينم عن الثراء المعقول..

(يا عزيزتى، أنا عجوز وقد أمنت على حياتى بمبلغ كبير، لو أنك تزوجتنى لفزت بهذا المبلغ، مقابل حسنك وجمالك..

قالت الفتاه الحسناء:

- أشكرك.. ولكن متى ستموت..:)

التفت فجأه إلى (منير) كان لابد وأن يجده يبتسم، لكنه كان ولا يزال ساهما، لا شىء من التعبير على وجهه.. أخذ يعبث بالمفاتيح، لقد بدأ اللقاء، متى سينتهى..

* *

دكتور محمود، كان لا يزال غائصاً فى لحظة الإنفعال بلقاء الشخص الذى جاء ليطلب يد ابنته، تجربه للمره الأولى، لها أثرها النفسى، مشاعر متباينه تمور فى نفسه، حاول أن يتغلب عليها بهواجسه التى يحلو له إجترارها، فأخذ يقارن بين حجمه وحجم العريس وبين حجم العريس وحجم عزه - خطر له أن فكريه برغم دقه حجمها تشبه سكان جنوب شرق آسيا، ولكن إرادتها الحديديه جعلتها فى نظره شىء لا يستهان به ولكنه يشعر بالحيرة.. كان تمنى لوكان صبرى فى نصف الوزن، تخيله بوجهه المتناسق التقاطيع وشعره الناعم بياض بشرته - فى حاله حذف نصف الحجم سيفوق - عزة حسنا - ولكنه عندما - سلم عليه - رآه يختلج، بدا شاحبا كمراهق

صغير.. عمره لا يزيد عن الثلاثين، وربما أقل، هو ووالده لهما رائحه (الاغنياء) رائحه الماضى، أم رائحه الفورمالين مع كلونيا الليمون هى التى أوحت له بهذا، وهل هى رائحه الليمون أم الياسمين، ربما أحدهما، عطر نفسه برائحه الياسمين والآخربرائحه الليمون، الحاج مصطفى.. يبخر نفسه بالعنبر، نسبه الرطوبة عاليه، لكن التيار من النافذه إلى باب الصالون يلطف الجو.. هل يدخن سيجارة ليهدىء من قلقه، فى ضوء الصالون الباهر أخذ يرمق العريس تاره ووالده تاره أخرى، لابد وأن ينطق ببعض كلمات الترحيب من حين لآخر، لم يكن يجيد القاءها، ربما قلب جمله أو جملتين فى ذهنه.. ثم انشغل عن قولهما.. عندما جلسوا.. بدأ بجمله ترحيب.. بدأت الجملة واضحه ثم تآكلت نهايتها حتى صارت غمغمات... عاد يفكر فى (ابراهيم السمانى) ابراهيم بيك السمانى، ملابسه وفخامته وحجمه جعلاه ينسى اسمه - المصاهرة - دمج العائلتين فى عائلة واحدة، فى الريف يأخذ الشاب الفتاة إلى عائلته فى المدينة تأخذ الفتاه الشاب إلى عائلتها، سيكون للسيد الوالد الحق فى تلك (القعدة) وربما (قعدة) أخرى، عند كتب الكتاب.. ثم ينتهى دور ابراهيم السمانى - يجب أن نودعه، نقول له (كل ولد وانت طيب)..

* *

عادت رفقه تتسرب إلى ذهنه، ترنو إليه بعينيها معاتبة.. كان يود أن يضع يده فى يد من يطلبون رفقه.. لماذا يأتى كل مانتمناه معاكسا، هل هناك حكمه من وراء ذلك، يحتمل.. الحاج مصطفى، يرتدى البدله الزيتى والصديرى، ولكنه يضع فى قدميه حذاء خفيفا، غير ملائم،

وعلى رأسه تلك الطاقية البيضاء الشبيكه، المتدينون اليهود يضعون على رؤوسهم طاقية صغيرة تلتصق خلف الرأس.. ماذا يمسكها عن السقوط؟لحيته التى اختلط بها الشعر الأبيض بالشعر الأسود وشاربه الخفيف تحت انفه الكبير والمسبحة، ابرهيم بيك، على الفور خاطبه بلقب الحاج، (عم على) بوجهه الحليق المغضن وحلته الرماديه، يضع فى قدميه حذاء من لونين بنى وأبيض، لا زال متأثرا بذوق المرحوم فريد الأطرش،أم أن فريد الأطرش كان يقلدك، أين يجد هذه الأحذيه؟ لابد وأنه يطلب صنعه خصيصا، أم أنه حذاء قديم، صوت يصدر من مسبحتين وكأنهما فى سباق.. مسبحه الحاج مصطفى، وعم على البقال، اصابعهما لا تكف عن الحركة، سقوط الحبات أسرع لعلاج التوتر العصبى.. يرى بعض الاخصائيين أن من الضرورى تحريك أى جزء من الجسم لسحب الطاقة الزائده وتصريفها، هل يعانيان توترا.. «ومن أى شىء» ؟كل منهما يتطلع إلى الآخر.. هاهم يعودون إلى تبادل كلمات الترحيب، الدكتور منير يعتصر اصابعه، عندما يكون جالسا بجانبه، يشعر أنه كامل العدد، لماذا لم يصارحنى بما حدث له؟ أثناء غيابه، قد يبدو شابا ولكنه تجاوز الخمسين، جاءتك هدية عيد الميلاد منها فى يوليو الماضى، هذه العلاقة ربما كانت تسعده.. ويحتمل أنها تشقيه.. الأشياء التى نبذل جهدا فى دراستها تبقى مده أطول، الأشياء التى نحصل عليها بسهوله نفقدها بنفس السرعه، ستبقى القراء أفضل وأبقى من المشاهده العابره بالتلفاز، فكرية لا تحب القراءه، صديقه منير، هل عشيقتك تقرأ خصيصا لتتقرب منك ومن عقلك بعد أن احتلت قلبك، لكن فكريه نظمت كل شىء بدقه (لماذا تأخرت) أرجو أن لا تتمادى فى التزين، حتى لا تسرق العيون من

ابنتها الساذجه، انها قد تبقى فترات طويلة مهملة لنفسها دون تزين متمارضه، شاحبه، تتحدث بذلك الصوت الواهن المتقطع، هل تبحث عن الحنان والاهتمام بها؟ ولكنها عندما تزين نفسها تتحول إلى شيء آخر، اسس، معظم النساء وجدن في الزى (الجديد) الثوب الطويل وغطاء الرأس، غلافاً سهلاً، يعفيهن من مشاق التجميل وتسريح الشعر، بعد عمل الحمامات الواجبه، لكن هل هذا زى اسلامى حقيقى، انه خليط من الملابس التركيه والفارسيه والهنديه، المماليك جمعوا هذه الامشاج فى نسيج واحد، لأنهم خليط، حاول أن يكون له كيان مميز، هل عدنا إلى تقليد هذا العصر المملوكى في مظهره، انه مهما كان فهو عصر ضعف وتفكك، فكريه ما زالت تتمسك بعصر النهضه الذى قادة قاسم أمين وهدى شعراوى وسيزانبراوى، عندما هبت المرأة ثائره على التقاليد العثمانية والمملوكية مطالبه بالمساواه مع الرجل فى الحقوق والواجبات، فخلعن الحبره التركيه ورفعن البرقع والشيمك، السيد الوالد، يرمق إبرهيم بيك (أين مراد بيك) هو ذلك الصيدلى منتفخ الاوداج الذى يبدو كطفل عملاق، شاهدت الصيدليه من بعيد، سألت عليه الجيران، قالوا أنه (ابن ناس) ولهم فيلا فى جناكليس، لكن لماذا نحن بالذات، القسمه والنصيب، أم أن البنت الشقيه نصبت له الشباك، أين؟ عزه الشعنونه تعرف كيف تنصب الشباك! عجبا الا تذكر فكريه (تقلب القدره على فمها تطلع البنت لأمها) عندما صارحتها بأنك لن تستطيع مجاراة العادات فى إحضار - الهدايا - فى المواسم والأعياد - ايام الخطوبه، خاصه وانت تجهز الشقه، كانت تقابلك، ليس من اجل التنزه والمشى على الكورنيش، كما يفعل العشاق، ولكن من أجل أن تدبر لك، ما عليك من واجبات، حتى

لا تسقط في عين أهلها وخاصه ـ المرحومة والدتها، كانت تتصيد لك الاخطاء، حتى تفتح عليك حنفية المياه البارده.. كانت تشترى ما يلزمها من أشياء وتدعك تحملها إلى بيتك وعندما يهل (الموسم) تذهب اليهم حاملا ما اشترته فكرية بحر مالها لتقدمه (هديه) فيحتفى بك الجميع الا فكريه! جعلت أمها تكاد تحملك عن الارض وتضعك على رأسها، وأخوها مصطفى ـ كان من المعارضين بشد في إتمام زواج أخته من تلميذ في الجامعة ـ كان الجميع يفسرون له الفرق بين المعيد والطالب، ولكنه كان يرى أن أى شخص يذهب إلى الجامعه دون أن يكون (دكتورا) أو موظفا، فهو تلميذ، ولم يجرؤ أن يذكر والدك (البقال) لأنه كان ايضا صاحب دكان لبيع الاقمشه في قلب سوق بأكوس، فوجه نقده إلى زوج شقيقتك فائزه الذى يعمل بالوكاله، في بيع الفاكهه والخضروات، وفكريه هي التي جعلت (مصطفى) يكف عن اعتراضاته، كانت تطلب منك إحترامه شكلاً ثم القاءه وراء ظهرك، فهو في بدايته كان يقترض من الجميع ويتجاهل رد هذه القروض بحجه انه في مرحله تكوين نفسه، وبعد أن كون نفسه وصار غنيا كان قد تأقلم على أن يأخذ ولا يعطي، فكريه التي دبرت له، أن يأتي الأيام الآحاد، حاملا لفافة الكباب أو الكفتة أو السمك المشوى والمقلى، حتى اعتاد (مصطفى) الغذاء الجيد على حساب (العريس) فكف عن انتقاده، بل بدأ يمدح فيه على استحياء، وكانت فكريه تساهم فى أثمان هذه المأكولات وهي التي ترسم الخطط حتى أصبح (كيف) جميع أفراد الأسرة، يشعرون بالحاجه اليه اذا ما غاب عنهم.. وقبل الزفاف.. عامله الجميع على انه (زوج فكريه) فكان ينفرد بها ولا يضيقون عليه الخناق.. فيحصل على مجموعه من القبلات، بعدد أيام

الاسبوع التى سيتغيبها، هل ورثت عزه هذه الخصال التى كانت تتمتع بها أمها، الاب آخر من يعلم، الأمهات خزانة أسرار بناتهن، لماذا تتلمض ياعم على، يبدو وانك قد شرعت فى القبض على طرف خيط، ماذا لو دخلت فكريه ووجدتك تتحدث عن مسرح رمسيس ويوسف بيك وهبى، أو الريحانى، وعلى أفندى الكسار.. وعشرات من نجوم المسرح.. وماذا سيكون وقع هذا على الضيوف.. لقد شعر الحاج مصطفى بأنك ستبدأ بالكلام وكأنه موصى بمراقبتك ومنعك من المشاركه بالحديث، بادر وقفز أمامك، نحاك جانبا، وبدأ هو الحديث (الحمد لله) هى بضع كلمات من الترحيب فى الزى الصوفى، لا بأس.. انه يبحث عن حكاياته التى سمعناها منه عشرات المرات، لعل فكرية والأولاد يأتون.. ثم نبدأ، يبدو أن كل شىء يتم خارج نطاق الصالون همسا وعلى أطراف الأصابع، أين جمال؟ لماذا لم يأت ويسلم على جده وخاله وصهرنا الجديد، جمال طالب بالمدرسه الثانويه، كان يقال أن الطفل الشقى عندما يكبر يصير ذكيا - فى الواقع جمال متوسط الذكاء(فى مراحل التعليم) حاد الذكاء فى (هواياته) يحفظ معظم المعلومات عن دورى كره القدم، عن ظهر قلب - ويكره الرياضه العقلية، لديه القدرة على حكى تفاصيل التفاصيل عن تاريخ لاعبى كره القدم والاحداث التى مروا بها واصابات الملاعب التى أثرت على قدراتهم.. كما يحفظ عن ظهر قلب تواريخ النوادى فى مصر حتى النوادى التى لعبت فترات قصيره فى الدورى العام ثم هبطت.. لكنه يكره (التاريخ) ويمر منه بالتعويض، تعال ياجمال حدثنا عن كأس العالم، هذا الحديث لن يختلف حوله أحد من الجالسين، فقد اتسعت ثقافتك الكروية، حتى شملت أوربا وأمريكا اللاتينية، وظهر

أخيرا اهتمامك بالكره في غرب افريقيا، بعد ان تضاءل دور الشمال الأفريقي («يا أبى مصر أول دوله لعبت كره القدم، تصور، غرب أفريقيا التي كان فيها طرزان في الغابة، أصبحوا أفضل منا، كنا نعاني هم شمال أفريقيا.. أضيف إلى همومنا غرب أفريقيا، معظم اللاعبين يحترفون في نوادي أوربا.. ونحن.. اليست هذه مصيبه) فعلا مصيبه ياجمال وستحط لاقدر الله لي دماغك، لانها لن تجد لنفسها مكانا فوق رؤوسنا التي تساقطت على صدورنا - مهلا يا محمود، أنت دائما تسرع الخطا، حتى تبدو لمن يراك إنك تعدو نحو هدف محدد، ينتظرون وصولك فلاتصل، يتوقعون توقفك فلا تتوقف، ولكنك في إندفاعك لا تدري إنك تدور في نفس الأماكن، وإنهم وضعوا في معصميك قيدا من (التكرار) وفي أقدامك - ثقلا، هو - مزيد من الإعاده للقديم.. ..

أففف (استغفر الله العظيم)

٦ـ الاجتياح

كان الدكتور صبرى يبدو قلقا، ليس قلق العريس الذى يقابل أهل عروسه لأول مرة من حين لآخر ينظر فى ساعته الذهبية، ثم يتطلع نحو باب الصالون، هل يتعجل دخول العروس ـ أم أنه خلف وراءه (مشاغل) هامه ويود العودة إلى الصيدلية، منير اذا كان فى حالته الطبيعية، كان سيبادر إلى جر ـ الصيدلى ـ إلى الحديث حول تجارة الادوية، وأدوات التجميل والنظافة، وهل من اللائق أن تتحول الصيدلية من بناء معمل للتحاليل وخلط وتركيب الادوية إلى محل يبيع البخاخات وفرش مسح البلاط والصابون إلى اخر الأدوات التى ليس لها علاقة ـ بدراسه الصيدلة الشاقة، نظر إلى صاحبه وجده ينظر إلى العريس ووالده بهدوء ـ ما كاد يتحول عنه حتى سمعه يسأل صبرى:

ـ اليس الافضل للصيدلى، انشاء معمله بدلا من تجارة الخردوات؟

نفس السؤال الذى دار بخاطر الدكتور محمود القاه الدكتور منير... السؤال باغت الشاب فاحتقن وجهه وتلعثم.. على الفور أنبرى

والده، مبررا مشروعية التجارة، ثم انعطف إلى أسعار الدروس الخصوصية ومن طرف خفى لمح أن هذه الدروس اجتاحت الجامعة وأن عديداً من المعيدين، يعتبرون ذلك من أساسيات دخلهم، وانفلت إلى أجور الاطباء الباهظة والذين صعدوا من تحت إلى فوق فتوالدت ثرواتهم في مزرعة الأرانب..

.. تشبث بذراع منير وكأنه يرجوه أن لا يشتبك، وأن يراعى انهم ضيوف، وأننا بالفعل فى حاجة لملء الوقت الراكد.. لكن ليس بالخلاف، كما أن هذا اللقاء لا يتحمل آراء الدكتور منير - التى يراها معظم الذين يتعامل معهم أنها متطرفة، وأن كان محمود ـ يراها، عين العقل، استسلم منير لضغطات يد صاحبه، لكن إبراهيم السمانى، اعتقد أنه قد اجتاح من أمامه منافسه، واستمر فى حمل القمامه والقائها فى نهر الطريق، حتى يزيد البله طين، ثم يبدأ فى لوم (الكناس) على تقصيره ـ من أجل المناسبة تركه يعربد وحده.. كفتوة انفلت عياره، واختفى من أمامه باقى الفتوات المتنافسين».

«أصعد التل، انتشبث بالاماكن المرتفعة، لكن التراب يملأ رئتى بذراته.. أرى حلما يتكرر كالكوابيس.. أنى قد مت وبقيت وجيزة فى وهج الشمس ثم دفنت تحت ركام من التراب..»

عندما فتح باب الصالون ودخلت فكريه، كان إبراهيم السمانى قد وقف فى منتصف الطريق هكذا بدا ـ حاملا كومه من القاذورات، كان قد أتى بها ليطلقها على الزمن، منذ بدأ قيام الثوره ـ رفع وجهه ورأى فكرية فى أبهى زينتها، ارتجت يديه، تساقطت القمامة من بين يديه وعلى صدره.. لطخت قدميه.. فصار مبهوتا «كثيرا ما نظرت فى

ارشيف عم على البقال، وصور الفنانات فى الثلاثينات بشعورهن القصيرة التى تغطى جباههن وتخفى احدى الخصلات عينا، كانت المرأه تبدو كصبى مراهق.. نحيفة واسعة العنيين، مستديره الفم، هيفاء القوام، فى اصرار أن تبتعد عن الصورة القديمة للمرأة فى الحرملك، تلك المرأة السمينة ذات الارادف والأكتاف المكورة والرقبة الضائعة بين اللغد والنهد..»

هل تطلعت فكرية إلى موضه الثلاثينيات والاربعينيات؟ هل استعارت أرشيف عم على أم أنها، خرجت من غلاف مجلة فرنسية (دكتور محمود) أخذ يتطلع اليها فى انبهار واخذ يقارن بين هذه الحالة من التألق والحالات السابقة، التى كانت تتعطف بها عليه فى المناسبات السعيدة، أو لتسترده اذا ما شرد بعيدا، أمسك منير بساعد صاحبه، هل يعبر عن اعجابه هو الأخر، وفكرية تخطو بتاييرها السماوى وتمد يدها برشاقة وتضعها فى كف (إبراهيم السمانى).. كان لابد وأن يبتسم (محمود) وهو يقدم (عينه) من بضاعته للزبائن، وقف الرجل وقد أطبق على يدها الصغيره بين راحتيه، انحنى إلى الامام، كما يفعل لوردات الانجليز غير الاستعماريين، واخذ ينتقى كلمات فخمه ورقيقه ويصبها فى اذنيها، الا أن بنطلونه الواسع قد انشلح عندما هم واقفا ولم يهبط على ساقيه، فأضفى على هيئته شيئا من (كوميديا الموقف) ثم انتقلت إلى (صبرى) الجدير بالاهتمام والذى وقف ومد يده، وبقيت يده معلقه فتره، فأنزلها وأعاد رفعها وانزلها عدة مرات، حتى يفرغ - والده - من بلاغته، وضعت يدها فى كف العريس وقد أحنى رأسه الكبير فاستطال باضافة اللغد على الوجه العريض، ضم كتفيه ورفعهما إلى أذنيه..»

.. كانت فكرية ترحب به، وأخذ يغمغم بكلمات غير واضحة، معظم حروفها تخرج من أنفه ولكنها كانت تعبر عن خجله المشوب بفرحته الغامرة، ولبضعة دقائق لم يلحظ أحد العروس (عزة) التى كانت كقمر يدور فى مجال فكرية، كيف جعلتها تبدو أكبر من سنها بعدة أعوام، الشعر مرفوع والصدر عريض بكتافات الثوب الحريرى (الموف) الأصباغ على الوجه - (أنها ليست ابنتى الصغيرة الكسوله - أنها صناعة فكرية) للحظة تذكر - محمود - مصمى الأزياء وعروضهم الحافلة بالإيماءات، تسبح فى مجال الموسيقى الهادئة.. ثم جاءت رفقه - وقد تمادت فى تمثيل دور الأخت العاقلة السعيده، ودخل جمال فى حلته (الكشور) الصفراء الجديده والحذاء الذى وجد معارضة شديدة فى شرائه (من والده) لأن ثمنه، يوازى ثمن ثلاثة أحذية، يحافظ على رعايتهم الدكتور وينظفهم بيده..»

«حرارة أجسادهم تتجمع فى يدى طاقة.. تسرى فى اعضائى وقودا.. فلا أكف عن الدوران.. أود أن أمضى فى خط مستقيم.. بلا فائدة...»

فكرية رحبت بشقيقها الحاج مصطفى، فى حرارة، وسألته عن أحوال الأولاد والأسره، بالغت فى الترحيب به.. وعندما وضعت يدها فى يد (عم على) لمستها فى عجالة واستدارات لتقدم العروس..»

ازدحم الصالون، جلست العروس على طرف الاريكه بجانب صبرى، وأشارت فكرية إلى إبراهيم السمانى أن يتفضل على المقعد الفردى بجانبها.. عندما جلس صبرى بجانب عروسه استحوز على ثلثى الأريكه، ورثت عزة دقة حجم أمها، بدت بجانب (العريس) كدميه

وضعها إلى جانبه تمهيدا للعب بها، لم يكن أحد يشعر بالفارق عندما كان يجلس والده بجانبه، نظر (عم على) بامتعاض... وازدادت الحبات الساقطة من مسبحته، حاول محمود - بقدر المستطاع أن يتجاهل النظر إلى منير، فهو يرى المفارقة ولا يريد أن يضحك، وقد لا يجد تبريرا لذلك أمام الضيوف...

كان محمود - يتوق للجلوس مع والده وحدهما، هل يمكن اعاده النظر فى هذا الارتباط - الا أن والده كان قد أطرق وقد زم شفتيه، ألم يكن يعرف عزه وقد جلس فترة طويلة أمام العريس، لماذا يطرق هكذا؟ وقد اعتاد منه أن يقود أى تجمع يتواجد بداخله، أم انها (رفقه) التى جلست عند الباب مطرقه بعد أن رحبت بالضيوف، أراد أن يشعل سيجارة، الوالد كف عن التدخين منذ عدة سنوات، مارك توين سخر من الذين لا يستطيعون الكف عن التدخين، قال: كيف لا يقدرون على الكف عنه مرة واحده وأنا قد كففت عن التدخين ثلاثين مرة، أراد أن يتدخل فى ترتيب جلوس الأولاد، عندما طلب جمال ليجلس بجانبه، لكن فكرية أبطلت مفعوله بنظرة خاطفة من زاوية عينها، متى دخلت صينية الشاى، لعلها رفقة، لم يلحظ أحد أن عزة هى التى جاءت بالصينية، كان لا يزال ينظر إلى فكرية لم يتصورها فى السرير، هزت رأسها هزه خاطفة فأزاحت خصله الشعر التى تركتها حره على جبهتها، ولكنها عادت ككف صغيره تسقط أمام عينها، كف مخضبة بالحناء، كان كمن يتطلع إلى مذيعة فى التليفزيون، تأثيرها لا يتجاوز - بالنسبه له، الرؤيه السطحيه..! التقاليد تحتم أن تدخل العروس حاملة بين يديها صينية بها فناجين الشاى.. لكن عزه دخلت وقامت فكرية بمعاونتها فى تقديم فناجين الشاى للحضور.. كان يخشى أن تتعثر

بصينينه الشاى، وكان يخشى أن تسقط الفناجين أو احدها من بين يديها، لكن كل شيء مر بسلام.. ومن العادات أن لا تخرج الصينية فى حاله القبول الا عامره.. زمان كان يدفع شئ من المال، الأوضاع تبدلت إلى هدية من الذهب.. عادت فكرية وقادت حملة الترحيب.. مما اضطر (عم على) مرة.. (والحاج مصطفى) مرتين أن يرحبوا بالعريس ووالده.. الكلمات نفدت برغم تكرار بعضها، على أوضاع مختلفه.. فساد الصمت.. المترقب.

على الطرف الآخر أن يبدأ.. بكلمات تعبر عن طلب القرب.. فأترك الحديث لوالدى، لكن هل يسمح (الحاج مصطفى).. هى ابنتى وأنا ولى أمرها.. ولى حق تفويض والدى، وبعد أن يتم الاتفاق المبدئى.. ننتقل إلى مناقشه التفاصيل.. لن نقرأ الفاتحه قبل وضع النقاط على الحروف، الذى أوله شرط آخره نور.. الا أن العريس ووالده كانا يحتسيان الشاى.. ويأكلان (الجاتوه) فى بطء، وهدوء، ولم يبد عليهما انهما يزمعان فتح الموضوع..

«أخطو وكان يخطو معى ظلى، يجادلنى ويبادلنى الحديث.. يدور حولى.. منذ توقفت تلاشى، هل توصلوا إلى شطب الظلال من ضوء النهار..» همس منير فى أذن صاحبه: عزة مزنوقة فى مسند الكنبة، لماذا لا تجلس على ورك العريس ـ ابتلع محمود الفكاهه بدون رد فعل، وستنكره لكزة خفيفة فى جنبه.. هل عاد إلى منير صاحبى.. انها بداية لكلماته المرحة الساخرة.. كاد، محمود أن يضرب رأسه فى ورق الحائط المنقوش، عندما انبرى الحاج مصطفى متحدثا.. «نعرف حواديتك يا حاج.. نقطنا بسكاتك، ابرهيم بيه، شرس ولن يسمح بأى

هفوة أن تفوت، حتى يضعنا جميعا تحت (الدش) البارد.. لماذا تعطيه الفرصه، أعرف أن احاديثك تمشى بقدم على الخرافه والقدم الاخرى فى مستشفى المعمورة للأمراض النفسية والعقلية...»

«بدأ بحكاية المجرم الذى قتل تسعة وتسعين رجلا ثم طلب التوبه، أراد اغتصاب فتوى من القاضى أنه اذا تاب يدخل الجنة ـ فذهب إلى منزل القاضى فى رهط من الناس سأله: اذا كان الله سبحانه سيغفر له ما جنت يداه وقد تاب عن القتل، ترقب الناس رد القاضى، وهو وهم يعرفون أن القاتل أزهق عشرات النفوس، أسقط فى يد القاضى ـ الذى اشتهر عنه الصدق فى القول ـ وخشى أن يتعرض لأذى.. (فى الواقع.. جميعنا أصغينا السمع وجذب انتباهنا حبكة الحكاية، كنت أعتقد أن هذه المبالغات لن تجد مجالا فى هذا اللقاء المحدد.. لكن خاب ظنى ـ وأن كنت قد سمعتها من قبل عدة مرات...»

خشى القاضى ـ أن يقول للقاتل أن ذنوبه عظيمة، أن يغضبه، وأن قال له أنه سيدخل الجنة يغضب الله، والناس تنتظر كيف سيتخلص القاضى من هذا المأزق.... ثم فتح الله عليه اذ قال له: اذهب إلى المقابر يارجل وازرع نبوتك الذى قتلت به خلق الله، واتركه وعد إليه فى اليوم التالى، اذا وجدته شجرة خضراء وارفه الظلال، فقد غفر الله لك. وقبل الله توبتك وأدخلك الجنة»

أفلت القاضى من غضب الطاغية وأحال التحدى بين الرجل وخالقه وهو واثق أن النبوت الجاف لن يورق فى سواد ليله واحده...»

أنصرف القاتل مع جمهور المشاهدين وتوجه إلى المقابر وزرع النبوت هناك وعاد إلى منزله والناس يسخرون منه ويشيدون بحنكة

قاضيهم، فى اليوم الثانى.. اذا بالنبوت يورق، أغصانا وأوراقا، سبحان الله... على الفور ذهب القاتل إلى بيت القاضى ليعلنه بالخبر اندهش القاضى وهلل الناس وكبروا ـ طلب منه القاضى أن يعيد على مسامعه ما حدث منذ تركه. تبين أن القاتل بعد أن غرس نبوته فى المقابر وانصرف.. قلق فى الليل.. فتوجه إلى هناك، ليطمئن فإذا به يسمع صوت استغاثه.. وجد رجلا قد أتى بسيده واراد اغتصابها.. فأخرج نبوته من الأرض وانهال به على رأسه وانقذ للمرأة شرفها.. دعت له السيدة وشكرته وانصرفت.. كما أنه عاد وغرس نبوته وانصرف واذا به فى الصباح شجره ورافه الاغصان والاوراق.. .. .. قال القاضى: ابشر يا رجل لقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وهذه هى بشارته..»

اهتزت الرءوس اعجابا بالحاج مصطفى، وقال عم على..

ـ له فى ذلك حكم ـ وعلى جانب فمه شبه ابتسامه معبرة ـ فعرف د. محمود مغزاها، كانت فكرية تحاول الاحتفاظ بهدوءأ اعصابها وتلك الابتسامة الخلابة على شفتيها تخص بها (العريس) تارة أو والده تارة أخرى.. أما باقى الابتسامات فقد كانت تسقط فى فنجان الشاى..

قبل أن يفيق البعض من تأثير الحكاية الاولى.. انتهى الحاج مصطفى إلى الحكاية الثانية، كانت تدور حول سيدة فقيره لا تجد حطبا لتخبز به العيش لأسرتها، فجلست حزينه، واذا بالقطب المتولى يظهر لها على شكل (الدنيا) عبارة عن عروسة مرصعة بالماس والياقوت والزبرجد والذهب والفضة (استفاض فى وصف العروسه

التى هى الدنيا يتنكر فيها القطب المتولى..) طلب منها القطب المتولى أن تتمنى شيئا فابواب السماء مفتوحه، لتحقيقه لها، أنه يوم قدرها، فاذا بالسيدة الفقيرة تطلب ما كانت تحتاجه بالفعل فى هذه اللحظة، إحمال من الحطب الجاف، سريع الاشتعال، حتى يمكنها من خبز ارغفتها ـ فى غمضة عين ـ امتلأ البيت، طرقاته وحجراته وسطحه بالحطب الجاف.. ذهلت السيدة.. ولم تفكر انها اذا طلبت أى شئ اخر كان سيتحقق لها، بل زغردت وشعرت بالسعادة الحقيقية (بالقناعتها) وعندما وجد أن المجتمعين لم يحفلوا بحكايته كما اثارتهم حكايته الاولى.. قفز إلى الحكاية الثالثة.. واذا بفكريه ـ تدمى شفتيها عضا ـ ثم تقاطعه مبتسمة وكانها ـ تلاطف طفلا شقيا باعادة شريط التحيات والترحيب بالضيوف وتعطفت على د. منير.. بكلمتين.. لم يفهم منهما من لا يعرفه، أنها تتمنى له أن يقدم على الزواج ـ كذلك عم على والحاج مصطفى.. لم يدركا أن (منير) لا يزال اعزبٌ.. (والا فتحنا على الرجل فتوحات) وطلبت من رفقه مزيدا من قطع الجاتوه.. واحضار اطباق الفاكهة .. كان جمال، كعادة الشباب، قد قام وخرج عدة مرات، فاشتبكت معه أمه، ثم أدركت الموقف، فتغاضت عنه وتحولت لدفع موجه أخرى من كلمات الترحيب.»

اعتقدت فكرية، أن حكايات الحاج مصطفى (وخشيت أن يبدأ عم على فى رواياته) وتتابع الشاى والجاتوه والفواكه وحركة جمال، طالع داخل، ربما كان ذلك سببا فى تعطيل إبراهيم السمانى وولده صبرى فى عرض ماجاءوا من أجله.. لكن (صبرى) لم يكف عن النظر فى ساعة يده.. ثم ينقر ركبته بأصبعه وينظر إلى نجفه الصالون وعندما دق جرس الباب، غشيه اهتمام خاص مع ابتسامة عريضة، لم يخف

على الدكتور محمود ذلك الانفعال الذى اكتسى به وجه العريس والاهتمام والترقب الذى اكتنفا والده.. لماذا؟

مضى جمال إلى باب الشقه، يستطلع القادم وتبعه والده عن قرب، فوجئ الدكتور محمود.. بأن الذى على الباب (دكتور جعفر نفسه..) ووالده (الشيخ عطيتو).. جعفرَ متأنقاً فى حلة رمادية ورباط عنق مزركش من نفس قماش منديل الجيب.. ووالده فى حلة بنيه فضفاضه، وعلى رأسه الطاقية البيضاء من القماش ذات السور.. وكلاهما ملتح.. الا أن لحية عطيتو تكاد تخلو من الشعر الاسود، برغم أن وجهه يبدو فتيا وأسنانه بيضاء متفرقة لها لون الصدف، هو (شخصيا) أفضل من صورته التى طبعت على الملصقات عندما رشحه (الحزب) لعضوية مجلس الشعب.. تحت شعار (الاسلام هو الحل) فقد بدا فى الملصقات ذات اللونين الاصفر والاسود بذقنه السوداء ـ شرس الهيئة، لم يكن بين د. محمود والشيخ عطيتو.. لقاء سابق ولكنه يعرف ابنه.. ويعرف عنه الكثير.. الا أن ما بينهما لا يرتقى إلى زيارته فى منزله، و فى هذا الوقت الحرج.. سلم عليهما ذاهلا.. قال جعفر:

ـ اعتقد أن إبراهيم بيك السمانى وابنه الدكتور صبرى قد حضرا..

ـ نعم.. تفضلا..

ـ ادخل يا أبى.. هذا هو الدكتور محمود الفكهانى..

مد الدكتور محمود يده اليه.. فاذا بالشيخ عطيتو يحتويها فى حراره..وهو يقول:

ـ مبروك مقدما يادكتور محمود

وغمغم.. د. جعفر

ـ ربنايتمم بخير

ارتبطت في ذهنه الجزئيات، انهما قادمان لحضور خطوبه ابنته عزة، لابد وأن ابرهيم السماني قد دعاهما.. لا بأس.. ولكن هل وجود د. (منير) في الصالون يثير.. جعفر..؟

مشى أما مهما إلى الصالون مرحبا.. عندما لحظت فكريه انهما ملتحيان وعلى جبهيما علامه السجود في حجم الريال القديم ـ فقد أومأت مرحبه ولم تمد يدها بالسلام.. استقبلهما ابرهيم السماني وصبري بالعناق الحار.. الآن وصل للدكتور محمود تفسيرا للقلق الذي كان يهب على وجه صبري، وحاله التوتر.. وعدم الحديث دونهما.. انهما كانا ينتظران الشيخ عطيتو وولده جعفر.. مالعلاقه بينهما ياترى؟وقف محمود مندهشا ـ وهو يرى والده يواصل احتضان الشيخ عطيتو وتقبيله كماأن (عم علي) كان يعرف جعفر وأخذ يرحب به، كان دكتور منير يهز رأسه ويتلفت يمنة ويسرة بحثا عن تفسير ـ سريعا ما تناثرت الذكريات.. تضيءما غمض «لعطيتو عندما كان شابا.. محاولات في كتابة الشعر والادب، كان يرعاها (على عبد القادر) عندما كون جماعه (عامود السواري) الأدبيه..»

ثم انتقل عطيتوالي أحضان الحاج مصطفى، تبين انه يعرفه أيضا حق المعرفه، ويسأله عن أولاده بالاسم، وتطور مرض زوجته.. وكان يزوره في المحل.. وقد حصل منه على تبرع للمجاهدين الافغان ضد

حكومة كارمل - وهذا ما يؤكده تاثير عطيتو الهائل على الحاج مصطفى، حتى - يتبرع - بالمال.. ومعروف عنه أنه يتباعد عن الغرم مهما كانت الاسباب.. وربما شعر الحاج مصطفى بالحرج والشيخ عطيتو يتباهى بمساهماته في معرض المفاخرة به ومعرفتهما الوطيدة - وجهاد الحاج مصطفى الخفى.. وسلم على الدكتور منير - ولكنه لم يحتضنه وعلى ابنته رفقة، وأخذ يبتسم فى وجهها، وعلى العروس وراح يهنئها، مقدما، ويدعو لها بالخير والصلاح.. ثم جلس - أنه مركز الدائره ولم يترك لأحد ناصيه الحديث. وكأنه جلس عليها، فقد أخذ يتحدث عن فوائد الزواج.. والوان القسمة والنصيب..»

لقد انتظراه حتى ياتى - (يا ألف مرحبا)... لكن ما صلة القرابه بينهما، أم إهما يعرفانه كما يعرفه والدى والحاج مصطفى.. مهما كان فإن ترشيحه لمجلس الشعب وسع من دائرة معارفه.. الحاج مصطفى كان قد ذاب فى مجال عطيتو.. مال إليه بصدره بعد أن زحف بمقعده نحوه - أو قل انجذب فى مجاله - خيل لمحمود أن صاحبه منير يقف ويجلس ضائقا بتواجده مع جعفر وعطيتو.. يريدان يفر خارجا..

«الجامعة منذ أن نشأت، من طبيعتها تنافس الأفكار، والمدارس فيها، ولكن فى السنوات الأخيرة تحول التنافس إلى عداء.. له أسلحة مشروعة، وغير مشروعة.. وكان ذلك إيذانا بانهيار الطبقة الوسطى فى حالة تنازع تياريها الاساسيين - اليسارى (العلمانى) واليمنى (الغيبى)، لتصعد من خلالهما القوة (البزرميطية) الجديدة التى تعرض كل القيم للبيع فى سوق النخاسة.. برافو د. منير»..

هل ينفجر الموقف فى الصالون... ذهبت بعيدا.. ماذا كان يقول عطيتو.. فى الواقع هو لم يتحرك بعيدا عن البداية، أنه يستطيع أن يتحدث أياما، دون أن يتزحزح قيد أنمله من مكانه.. ودون أن تشعر بالضيق أو الملل، أنها نفس النقطة، فى فوائد الزواج، يضئ جوانبها من كافة النواحى، تارة بالآيات القرانية، وتارة بأحاديث مسنده وغير مسنده وتارة بالاساطير.. هل دعوه لهذا المقام.. ليلقى علينا هذا المقال؟

تبددت حيرة ـ الدكتور محمود ـ عندما انتهى ـ عطيتو ـ من التمهيد الطويل وتعرض إلى (عشرة العمر) وصديقه الحميم إبراهيم بيه.. منذ كان يعمل فى الداخلية، قبل الثورة وبعدها لفترة وجيزة ـ خبر كان لابد وأن يخفيه عطيتو ولا يكشفه.. لقد ترك وظيفته مرغما فى حمله التطهير من المفسدين التى شملت بعض اقارب إبراهيم السمانى وتضمن الحديث المستفيض، خبراً آخر ـ عطيتو، خال ذلك المليونير الذى يتهيا للاستثمار فى مصر.. زوج ابنه ابراهيم السمانى.. يالها من شبكة، هل تتابعون كشوف الاسماء فى صفحة الوفيات هكذا ترابطت الجزئيات فى ذهنه ـ لماذا يتجاهلون د. منير وله مع د. جعفر، صولات وجولات، وكلاهما يربض على الشاطئ المقابل.. لكن اذا كانوا هم يتربصون بالدكتور منير ـ هل يتربص بهم منير أيضا، أن بينهما نفور الاقطاب المغناطيسيه..

بدا.. للدكتور محمود... أن الشيخ عطيتو لماح وذكى ـ ولم يصدق أن هذا الذى يبدو ورعا... يقتل مولاه بالسم، ربما هى اشاعه (سامه).. وقال فى نفسه (أن الشيخ عطيتو لم يأت الينا اعتباطا.. ومن

أجل طلب القرب لصبرى.. فهو قد جمع معلومات عن الحضور.. وهو بطريقة غاية فى الذكاء، وجه انتقاداً لسفور المرأة وتمثلها بالاجانب وحبذ عودتها إلى حظيرة الاسلام، وأكد ميزات حجاب المرأة ـ كما إنه لم يعارض النقاب، ونفى أن يكون النقاب زياً دخيلا، فللصلاة حدود ولكن من أزاد له الثواب.. وكأن الرسالة وصلت إلى السيدة الناظرة من طرف خفى.. فقد أغرقتهم فى فيض من الترحيب.. وغادرةً الصالون مع رفقه لا حضار مزيد من واجبات الضيافه وعندما عادتا.. كانت قد وضعت على رأسها (منديلاً) حريرياً... يتفق لونه مع لون الثوب، وكذلك رفقه.. لحظ الشيخ عطيتو ذلك على الفور.. انتشى شعر بالزهو، أشرق وجهه وقال...

ـ يا أم جمال.. انتظرى

فحطت بجانب الباب، على المقعد المجاور.. تكاد تخفى ساقيها تحت المقعد، تراقب بؤبؤ عينىّ الشيخ فى حركتهما.. باسطه على ركبتيها إحدى الفوط البيضاء التى احضرتها مع الأطباق.. وأطرقت تحصى عقد السجاده...»

لم يستمع ـ محمود ـ إلى تعليقات منير.. كان يريد أن يعرف لماذا طلب عطيتو من زوجته الانتظار.. ربما سيبدأ فى طلب يد عزة..

قال الشيخ عطيتو.. بعد الصلاة والسلام على النبى العدنانى.. .. .. « الدكتور صبرى.. زين الشباب... يرغب فى الزواج من ابنتكم المصون والعرف.. فى رأيى لابد من زواج البنت الكبيرة قبل الصغيرة، أنا أرفض أن نترك الحبل على الغارب فى هذه المسألة.. .»

انجذب د. محمود بشده نحو ما يتفوه به ـ عطيتو ـ لمس نفسه وترا مشدودا.. فدوى طنينا فى أذنيه.. رفعت فكرية راسها فى اتجاهه.. كفت المسبحتان عن القاء الحبات.. (عم على) اشرأب بعنقه، يريد أن يضع أذنه الكبيرة التى ضعف سمعها فوق شفتى عطيتو، واصل عطيتو الحديث بعد أن نظر مليا إلى ولده جعفر.. كان قصيرا ومنبعجا.. ووجه مستدير مشدود البشره.. اسمر لامع.. خفض بصره وأطرق..

ـ ابنى الدكتور جعفر، غنى عن التعريف، الدكتور محمود يعرفه حق المعرفه كذلك ـ توقف برهه ـ الدكتور منير.. ويعرفان أنه كان قد تزوج من زوجة لم تنجب (فى الواقع لم يكن د. محمود أو صاحبه منير يعرفان شيئا عن هذه المعلومة).. .. المال والبنون زينة الحياة الدنيا.. وعندما وجدت أن ولدنا د. صبرى ـ يخشى أن يرفض طلبه أو يؤجل، فكرت فى تذليل هذه العقبة، بطلب يد ابنتكم، رفقة لابننا جعفر، قبل طلب يد ابنتكم عزة ليد ابننا صبرى.. فما قولكم، والخيرة فيما اختاره الله (يا جماعه).

تململ منير.. همس فى أذن محمود.. هذه صفقه وليس زواجا ـ لم يأخذ أحد رأى رفقه، .. .. رفقه ليست بائرة.. لا توافق يا محمود» كانت رفقه قد تسللت خارج الصالون عندما تبنيت أنها ـ جزء من حديث الرجل، أن الموافقة على مقترحات عطيتو دون دراسة أو تمحيص خطأ فادح».. ..

كان محمود يميل إلى التأنى.. وأخذ الوقت المناسب لعرض (العرض) على كافة الجوانب.. عطيتو رجل ليس ساذجا وأن ـ حاول

أن يبدو كذلك، ولم يقتنع محمود بالأسباب التى ساقها ـ كيف تم هذا فى وقت قصير، كيف أتيح لعطيتو أن يعرف دخائل بيته ورغبته الدفينه.. أنه يكاد يعرف أن محمود ـ سيوافق على اقتراحه بدون تردد ـ مشكلة رفقه كانت تتجسم داخله، أنها الشكل البائس والجوهر الماس الذى لا يكتشفه سوى المقربين إليه، هل اكتشف عطيتو.. الكنوز المدفونة فى الرمال، فأراد أن يستحوذ على الأرض بالسعر الزهيد.. هل يعرف عطيتو أن الدكتور محمود.. سلم قيادة الأسرة لفكرية، قال لها بالفم الملآن.. (انتظرى يا أم جمال).. ووجه معظم حديثه إليها.. وأخذ ينظر إليها وينتظر الايماءه بموافقتها على ما عرضه.. الغرض وجد فى نفسه القبول، كان مشحونا بعامل نفسى، رفقه فى أشد الحاجه إليه.. حتى لو لم يتم تنفيذه.. كذلك انبعث (الرفض) بنفس القدر.. تحولت فكرية بوجهها إلىّ، ياللك من امرأة ذكية لم تبعث اى اشارات تنم عن رأيها.. رفعت قدره أمام والده.. والآخرين، قال الدكتور محمود..

ـ نحن نشكرك يا شيخ عطيتو على هذا، لكن الدنيا تطورت ولم تعد المشكله من يتزوج أولا.. ونحن نرى أنها ليست عقبه..

قال الشيخ عطيتو بعد أن رأى على الوجوه الاخرى شيئا من الارتياح..

من ناحية المبدأ.. (ما رأيك يا أم جمال؟)

لايزال يريد رأى (فكرية)

قالت فى حزم مع ابتسامة رقيقة..

ـ اذا حضر الماء بطل التيمم يا شيخ عطيتو، الرأى لوالدها.. وجدها الاستاذ على عبد القادر..

ثم رفعت صينية من أمامهم.. وانسحبت من الصالون..

اتسعت ابتسامة الشيخ عطيتو، هز رأسه كأنه استمع إلى وصله غنائية من (أم كلثوم).. وقال:

ـ بارك الله فيك يا أم جمال، هكذا تكون المرأة المسلمة، تفسح المجال للرجال، حقا أنها مربيه فاضلة..

هل يرقع ما مزقه.. بحنكه ابن السوق.. توجه إلى (عم على البقال) والحاج مصطفى.. وكأنه يستعين بهما للضغط على الدكتور محمود..

وقبل أن يهم (على عبد القادر) متحدثا.. سبقه الحاج مصطفى قائلا..

ـ الخيرة فيما اختاره الله، الدكتور جعفر تتمناه أى أسرة فاضلة ولا يعيب الرجل السن..

قال عم على..

ـ الرأى النهائى ليس لنا.. لابد من إحالة الأمر إلى رفقه، انها متعلمه، وتعرف مصلحتها جيدا.. إلا أنى أود أن اسأل الدكتور جعفر ـ لمؤاخذه يعنى، قبل أن يطلق زوجته لعدم الانجاب، هل تأكد أن العيب فيها وحدها..؟

ساد الصالون.. صمت قلق..

وإذا بالدكتور منير.. يهم واقفا.. ويوجه حديثه إلى (عم على عبد القادر)

- استاذ على.. ربما لا تعرف عنى الكثير.. ولكنى أعزب.. لم يسبق لى الزواج.. أود أن أتزوج من الآنسة رفقه

(قنبله)

إلتفت الجميع إلى الدكتور منير.. كان يبتسم فى هدوء.. وكانت كلماته قد وصلت خارج الصالون.. ذهل الجميع.. ووقع الدكتور محمود فى المنطقة الرخوه..

كان جعفر ينظر إليه - كاظما غيظه.. بينما عطيتو.. قد أطرق مفكرا.. قال (على عبد القادر)..

- يعرض الامر على العروس، ولها أن تختار بين الدكتورين.. فى ظنى أن كلاً منهما له ميزاته.. وكذلك عيوبه..

فصدرت بعض الضحكات الخاويه..

«كم داعبنى حلم أن يتقدم لرفقه (عريس) يطلب يدها.. يقدر هذا القلب الذهبى ولكننى لم أتصور مطلقاً أن يكون جعفر أو منير.. وفى وقت واحد..

«على الارصفه وبداخل البوتيكات التى حلت مكان المطاعم والمخابز ودكاكين العلافة وأنوال النسيج الخشبية.. تباع نظارة ذات عين زرقاء وعين حمراء، لها خاصية عجيبه، تستطيع أن ترى بها وجهتى النظر فى طيف وردى حالم.. رفضت بشده شراءها برغم الحاح البائع..»

٧ـ القرار

قال الشيخ عطيتو:

ـ موعدنا الاسبوع القادم فى نفس الموعد، ندعو الله أن يهيأ من أمرنا رشدا، لكن ـ على عبد القادر ـ رفع يده النحيلة، معارضا.. وقال بلهجته الجنوبية

ـ يا شيخ عطيتو انتظر.. لقد حضر إبراهيم بيك والدكتور صبرى... وكانت دعوتنا لهما لانهما جاء لطلب يد ابنتنا عزة.. وعندما حضرت أنت ربطت بين عزة وأختها رفقة.. بغرض تقديم (خدمه) لنا.. نحن نشكرك على هذه المشاعر الطيبه، أنا أرى هذه نقره وتلك نقره أخرى.. وزعلن بصفتى جد العروسين، اذا انصرف إبراهيم بيك وأبنه، لن يكون له عندنا بنات للزواج..

(قنبله اخرى)

كان صبرى قد وقف، ارتمى جالسا على الأريكه، كأنه قد دفع فى صدره وأخذ (على عبدالقادر) يرمق ابراهيم السمانى، فترة من الوقت

رآه ينظر إلى عطيتو، وكأنه ينتظر رأيا.. استطرد على عبدالقادر قائلا..

– حدد موقفك ياسيد ابراهيم، نحن لا نحمل (بضاعة على بضاعة)

لم يضحك أحد..

قال عطيتو..

– يا أستاذ على، نحن نريد ان نجعلها حجه (بقديسه)

هب (على عبدالقادر) واقفا.. وصاح..

– الحج له موعده وطقوسه.. اما زيارة المسجد الاقصى، فهى بدون موعد وتتم فى أى وقت تشاء.. اذا سمحت الظروف..!

أمسى الأمر فى يد ابراهيم السمانى، عاد يتطلع إلى ابنه تاره وإلى الشيخ عطيتو تاره أخرى ـ واذا بالدكتور صبرى يتكلم وهو جالس .. وقد رفع كفه أمام الجميع..

– استاذ على، دكتور محمود.. أنا طالب القرب منكما فى ابنتكم المصونه (عزه. محمود الفكهانى) اذا وافقتم..

(دس يده فى جيب سترته الداخلى وأخرج علبة صغيره فتحها وتناول منها الخاتم السولتير)..

«هذا خاتم المرحومه والدتى، سأضعه الآن فى اصبع الانسة عزه ونقرأ الفاتحة»

سكت وقد تفصد على جبينه العرق.. وأخذ يلتقط أنفاسه بصوت مسموع..

قال على عبدالقادر.. مرحبا..

- آه هذا جيل من عائلة السماني، نحن نوقره، وننظر إليه بكل تقدير ولكن ليكن معلوما للجميع، نحن لا نزوج بناتنا الا عن حب.

أنبرى صبرى قائلا.. دون أن يختلج

- أنا أحبها يا سيدى.. أحبها بالفعل

ثم أصطبغ وجهه بلون الدم، حتى أنه لم يسمع الموافقات من الجد والأب.. ..

فقال له والده وهو يشيح فى وجهه..

- ضع فى يدها الخاتم ياصبرى.. مبروك

فسارع ووضع الخاتم فى اصبعها الرقيق.. وقرئت الفاتحة..

حاولت فكريه ان تزغرد.. ولكنها لم تفلح.. فأطلقت رفقه زغروده.. ثم توارت خارج الصالون..

* *

عندما هم الجميع بالانصراف، توجه عطيتو إلى (على عبدالقار) وشد على يده بحرارة متمنيا ـ ان يتم الله للجميع بالخير، ونظر إلى ابنه الذى وقف صامتا وقال:

- بيدك ياستاذ على.. ان نسعد جعفر

قال ـ على عبدالقادر

– أعطنا وقتا للتفكير والتشاور يا شيخ عطيتو، كل شئ بالخناق إلا الزواج بالاتفاق

وعندما سلم على الدكتور محمود.. انتحى به جانبا وهمس فى أذنه..

– عقدك بآلاف الريالات، استاذ فى جامعة الملك.. اعتبره فى جيبك ـ أن مسعاى فيه، هو هديتى الشخصية للزواج..

* *

«تزوجت رفقه من جعفر، تضاءل دور الدكتور محمود فى البيت ولزم الصمت فى العمل، أخذوا فكريه على (البيعه) رآهما منقبتين.. ثم رأى ابنه جمال، فى جلباب أبيض، وذقن خفيفه، شاحب الوجه زائغ النظرات، حليق الرأس، يخوض حرباً مقدسة ضده فى البيت ـ من أجل الخلافة ـ وفى ردهات الجامعة من أجل الأمير ، يلقى بالقنابل فى الميادين وبداخل المقاهى، دون أن يقدم له الأسباب الموضوعية لتلك الافعال، رأى نفسه، ليس أمامه إلا أن يتعلق بقارب (عطيتو) وهو يشرف على الغرق، رأى نفسه يجلس أمام شاب صغير السن قليل الخبرة، ضحل التفكير، كان له بمثابة الأمير، له عليه االطاعه وألا تعرض للاغتيال والصفية الجسدية..»

أفاق من تلك الكوابيس التى كانت تطمس حاضره وتجذبه كل قسوة إلى الماضى المظلم، متخطيه الماضى المشرق والزمن المضئ..

كيف يصور لابنته الموقف، كيف يعرض عليها ـ هواجسه وتخيلاته اذا ما أقترنت بجعفر، وصار لعطيتو اليد العليا.. عرض الأمر على والده، فكان رأيه قاطعا:

«أصرف النظر تماما عن هذا العرض..»

ولكن رفقه ـ حسمت ـ حيرته..

لا تشغل بالك يا والدى، أنا لم أتزوج من الدكتور جعفر ولن يكون عطيتو حماى، ألم تسمع السؤال الذى طرحه جدى عليه فلم يحر جوابا.. عن انجاب الأطفال، أن زواجى منه اذا تم محكوم عليه بالفشل وعدم انجاب الذرية الصالحة، أما (عمى) الدكتور منير فهو يدافع عن مستقبلى بطريقته الخاصة.. أراد أن يضحى بحريته، من أجل إنقاذى، فهو لو أراد الزواج لتزوج من عشرين عاما.. وأنا فى كل الاحوال أوجه له الشكر.. فالأبنه لا تتزوج والدها..»

كانت رفقه تتحدث بثقة.. فقد التأم الشرخ فى نفسها..

قال لها الدكتور محمود.. وهو يضرب كفا بكف..

ـ لقد أضعت على والدك، عقدا بآلاف الريالات، كان يمكن أن يوفر لكل منكم سيارته الفاخرة..

قالت، وهى مطمئنه إلى رأى والدها الحقيقى..

ـ لا أعتقد يا والدى أن كل المتعاقدين قد دفعوا هذا الثمن الباهظ..

ضحك ضحكته القصيرة التى تعبر عن الدهشة أكثر مما تعبر عن السرور..

ـ اذن لماذا تأخروا فى طلبى، وأنا استاذ العصور الاسلامية..

ـ أنت أستاذ.. ولك وجهة نظرك العلمية، هل تبيعها من أجل حفنه دولارات

أجاب على الفور وهو يحتضنها..

ـ ولا.. كنوز الدنيا.. يارفقه

قالت وهى تضع خدها على خده

ـ اذن، كن سعيدا.. وأنت تقطع المسافة ماشيا على كورنيش البحر من البيت إلى الجامعة وبالعكس.. ستبقى دائما ـ وأنت تتنفس الهواء النقي ـ رياضيا سليم البدن، سليم العقل»

انشغل دكتور محمود بعض الوقت فى تعليل ظاهرة موت الدببه فى حدائق الحيوانات المفتوحة.. ..

دأب الزوار على إلقاء الطعام من سياراتهم للحيوانات..

السباع كانت تنفر من التقاطه، وبقيت تعتمد على صيد طعامها..

أما الدببه، فقد دأبت على انتظار الزوار فى مكانها، حتى كبلتها العادة، فنسيت كيف تدبر طعامها من الغابه..

وعندما حل موسم الجفاف وانقطع الزوار عن ارتياد الحديقة، نفقت الدببه الكسولة.. «ولم يبق فى الغابة سوى الأسود.. التى أنفت يومًا أن تتسول طعامها..»

تمت بحمد الله

عبد الفتاح مرسي

سيدي بشر ـ الاسكندرية

شتاء ١٩٩٤

كتب للمؤلف

١ ـ على حافة النهار [رواية ١٩٩٣] طبعة أولى
٢ ـ الدحديرة [رواية ١٩٩٥] طبعة أولى

تحت الطبع

ـ زمن الفنط مزهود رواية
ـ زعربانة رواية

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٣٣٢٠

I.S.B.N 977-235-524-8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب